مشروع إعداد نسخة إلكترونية لمجلة

آفاق أدبية

التي يصدرها قسم الأدب والنقد في كلية اللغة العربية بإيتاى البارود

جامعة الأزهر

إعداد وإشراف

أ.د/ يوسف محمد فتحي عبد الوهاب

رئيس قسم الأدب والنقد

آفاق أدبية

كتاب غير دوري يعنى بالدراسات الأدبية

يصدره قسم الأدب والنقد بكلية اللغة العربية

بإيتاى البارود جامعة الأزهر

الإصدار الثانى شهر المحرم ١٤٢١هـ ـ مايو ٢٠٠٠م

آفاق أدبية

كتاب غير دورى يعنى بالدراسات الأدبية

يصدره قسم الأدب والنقد بكلية اللغة العربية بإيتاى البارود جامعة الأزهر
الإصدار الثانى شهر المحرم ١٤٢١هـ - مايو ٢٠٠٠م

بسم الله الرحمن الرحيم

افتتاحية العدد

بقلم أ.د: **صباح عبيد دراز**

" عميد الكلية "

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير خلقه وصفوة رسله سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه ، وبعد :

ففى هذا العهد المبارك الذى هيأ الله فيه لجامعة الأزهر الشريف قيادة رشيدة نبيلة تبذل من حياتها وعلمها وجهدها فى سبيل الحق ليؤدى الأزهر رسالته التى حافظ عليها منذ ألف عام فى حراسة الشريعة الإسلامية الخالدة ونشرها بين العالمين ، والحفاظ على اللغة العربية لغة القرآن الكريم والسنة المطهرة ، هذه اللغة التى تمثل تراث الأمة وفكرها وأدبها وتاريخها العريق.

وهى قيادة لها من الله التأييد والتوفيق ،ومن الناس المحبة والتوقير، أعنى فضيلة الإمام الأكبر شيخ الإسلام الأستاذ الدكتور: **محمد سيد طنطاوى**، والعالم الجليل الأستاذ الدكتور: **أحمد عمر هاشم** رئيس الجامعة التى تفرعت أفنانها فى عهده لتغطى الوادى المبارك من شماله لجنوبه ، ممثلة فى أكثر من خمس وخمسين كلية فارعة ، تضم أكثر من نصف مليون طالب وطالبة يتلقون علوم العقيدة والشريعة واللغة ؛ ليكونوا مصابيح الهدى بين الناس .

وإدارة كلية اللغة العربية بإيتاى البارود تسعد أن تقدم هذا الإصدار المبارك لقسم الأدب والنقد بالكلية ، نشاطاً متميزاً يضم قدراً صالحاً من الدراسات والبحوث التى تتناول – فى أكثرها – النشاط الإبداعى على الساحة الأدبية ، وقد

شارك فى تحرير هذه البحوث نخبة من أساتذة القسم ومدرسيه وبعض أبنائنا النابهين من المدرسين المساعدين ٠

وكان خير مفتتح للمجلة قصيدتان تذوبان سحرا وجمالا، وتفيضان حبا وإجلالا وتموجان بالأحاسيس الصادقة الدافقة، وهما للشاعر الكبير الأستاذ الدكتور: **محمود على السمان** فى العالم الجليل والشاعر الأديب الأستاذ الدكتور: **أحمد عمر هاشم** ،وهو حب صادق تقاسمه فيه الجامعة، أساتذة وطلابا، وتشاطره فيه أبناء الأمة العربية والإسلامية ،وإذا كنا نذكر للعالم الجليل والداعية الإسلامى الكبير إمامته في علوم التفسير والحديث والدعوة ،وغيرته " الهاشمية "على الإسلام ،ودفاعه عن الكتاب والسنة، وجهاده الجاهد فى تقديم صحيح الإسلام، ودفعه بالحكمة والحجة ما يثيره من لا علم عنده فإننا نذكر ما أشار إليه كبار الأدباء عما منحه الله من عبقرية ملهمة فى شعره الشاعر ٠

وما أشبهه بين نجوم الشعر العربى بالشريف الرضى ، الذى حلق بالشعر العربى في سماوات عذراء٠

ومن هنا سارع أبناء الكلية فى قسمى: الأدب والنقد، والبلاغة والنقد، بالدراسات العليا إلى اختيار موضوعين جديرين بالبحث والدراسة، وهما:

الأستاذ الدكتور: **أحمد عمر هاشم** شاعرا٠

والسمات البلاغة فى شعر الدكتور: **أحمد عمر هاشم** ٠

ونحسب أن ثمة جوانب عديدة فى شعره فى أمس الحاجة إلى بحوث ودراسات ،كالاتجاه الإسلامى فى شعره ، ونهج البردة بين الأصالة والتأثر، والشعر الوطنى، والشعر العاطفى، ومصادر الإبداع عنده٠

وما زلت أذكر ونحن طلاب فى بداية الستينات من القرن الماضى، ونحن نستمع لقصائده الرائعة فى قاعة الإمام : **محمد عبده** ، فيستولى على الأفئدة والمشاعر بعاطفتة المتأججة وخياله المحلق ومعانيه الراقية وأسلوبه العذب الجميل .

وقد تناول الباحث عبدالوهاب برانية فى هذه المجلة جوانب مضيئة من شعر الدكتور : **أحمد عمر هاشم** .

وتلا ذلك مجموعة طيبة من البحوث الجادة للأستاذ الأديب الدكتور : **صفوت زيد** رئيس القسم وللأخوة الزملاء ولأبنائنا الباحثين

ونحسب أن هذه المجلة تسهم فى الحركة الأدبية المعاصرة

حمى الله أزهرنا الشريف كعبة العلم وحصن العربية وسراج الأمة وأيد علماءه بنصر من عنده .

والحمد لله رب العالمين

أ.د/ **صباح عبيد دراز**

عميد الكلية

حكمة العدد

" إن من البيان لسحرا ،

وإن من الشعر لحكمة "

حديث شريف

الأستاذ الدكتور / أحمد عمر هاشم

في دوحة الشعر

تهنئة

إلى فضيلة الأستاذ الدكتور / أحمد عمر هاشم بمناسبة توليه رئاسة جامعة الأزهر عام١٩٩٥م

****

أخى أيهذا الكريم النبيـــــــلْ

أخى أيهذا الرئيس الجليـــلْ

أيا أحمدُ‘ عمرُ‘ هاشـــــــــمُ‘

بكم قد تحقق حلم جميـــــلْ

أتتك الرياسة منقـــــــــادة

إليك تجر حرير الذيــــول

وهذى ذ ى الآن بيـــن يديــكْ

تراها وقد سعـــــــدت بالمثول

فأنت الأديب وأنت الخطيـــــب

وشاعر صـــــدق وأستاذ جيل

وأنت الحليم وأنت الحكيـــــم

وأنت رحيـــــم وسهل ذلـــول

لك الحمــد يا ربنا والثنـــــا

من المؤمنين ٠٠ وشكر جزيل

****

أيا أحمـدُ عمـرُ هاشـمٌ

عرفنـاك عـبر زمان طويلْ

غمرت بحبـك كل الصحـابِ

فكنتَ الصـديق لهـم والخليل

ولم تخش من جَمَـعوا للأذى

أجل ، حسبك الله ٠٠ نعم الوكيـل

****

تواضعت ٠٠ كالنجم يعلو سحابا

ويبدو لنا فـوق صفحة " نِيـلْ"

فيقرُب منك الضعيف الفقـيرُ

ويسمو إليك الحسـيب النبيـل

ويلتفُ حولكَ أنَّى ذهبت الـ

قبيلُ الكثـير ٠٠ فمـاذا نقول ؟!

بما رحمـةٍ من إلهـك لنـت

ولو كنت فظا لفض القبيـل !!

****

جمعت خلال الهـدى كلَّهـا

فنلت النجاح ، وحُزت القبـولْ

فصاحةَ هـرونَ ٠٠ شهـدَ اللسان

وحكمةَ لقمانَ ٠٠ طبَّ العقـول

وأجملُ ما فيــــــك يا شيخَنــــــا

حياء كمثل حيـــاء البتـــــــول

وكان لك " المصطفى" أســـــوة

ويا سَعْدَ من يقـــتدى بالرســـول !!

****

أخى ، قـــد رقيــــــت إلى ذِروة

هُدَى اللهِ كان إليـــها الدليـــلْ !!

وتُخلص لله فـــــى دعـــوة

فَسِرْ ، وعلى الله قصـــد السبيــل

أ٠د/ محمود على السمان

بسم الله الرحمن الرحيم

"إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لايحب كل خوان كفور"

****

دفاع

عن فضيلة رئيس جامعة الأزهر ، الأستاذ الدكتور أحمد عمر هاشم بمناسبة ما نشر بجريدة (الدستور) في العدد ٥٤ بتاريخ ١٨/١٢/١٩٩٦م

****

يا صاحِبى قد أفرخ الشيطـــانُ !

وتناءت عن فُلْكِنا الشطــــــآنُ !

أرأيتم ما قال أمـــس مريــض

في دجى النفــس تائــهُ حــيران؟!

أقرأتم ما قال في النـــاس مِسْــخٌ

يتمنى لـــو أنـــه إنســـان ؟!

أعلمتم فيمن يخـــوض ويلغو ؟

إنه من عَلَــتْ بـــه الأركـــان !!

****

لا تلوموه فهو يصـــدر عن فكـــ

ـــرٍ يُجافِي ما أنزل الرحمـــــنُ !

إن ما قاله لَمَحْـــضُ افـــتراء!

إن ما قاله هـــو البُـهتـــــان!

إن ما قاله لَعَـــارٌ كـــبـــير

وشَـنَارٌ ســـارت بـــه الرُّكبان!

إن ما قاله ومن معـــه فـــى

(أحمدٍ هاشــمٍ) ٠٠ هو الهَـذَيان !

حاربوه رَمْزاً وليـــس رئيســا

إن ما استهـدفوا هـــو الإيمــان !

****

يا بـــلادى شر البليـــة أنَّـــا

نترك الهــادىَ الشــريفَ يهـــان !

يا بـــلادى وشر يوم علينـــا

يوم يُحْـمَى مضــــلٌّ ويُعـــان!

****

يا حماة الأخلاق والحق ٠٠والكلمة

يرجــى بهــا لشعـــب أمـــان ٠٠

فلتصونوا اليراع مِنْ شرِّ مَنْ ينـ

ـفُثُ سُمّــاً كأنــــه ثُعبـــان !

باليراع العظيـــم أقسم ربِّـى

ليس مثلَ اليراع شــئٌ يُصـــان !!

****

يا رفاقُ (دُستوركمْ) ليس عَدْلاً!

كلُّ أحكامِهِ هَـوًى وهَـــوان!

أعرفتم من جاء يُوحِـــي إليكمْ

زُخرف القولِ ؟ .. إنه الشيطـان!

أوَ هذا (دستوركم) يا رفاقُ ؟!

إنَّ دســـتورَنا هو (القـــرآن)!

الدكتور/أحمد عمر هاشم .. شاعراً

بقلم عبدالوهاب عبدالمقصود برانية(*)

من الحقائق الثابتة أن الشعر الدينى دليل الصلة القوية بين الشاعر وخالقه سبحانه ؛ إذ تمضي الروح وتسبح من خلال هذه الصلة ، حاملة الكثير من الانطباعات والمعانى مما يوحى به المجتمع الذي نعيش فيه.

فالذكريات والمناسبات الدينية المختلفة ، من ذكرى الإسراء والمعراج، وغزوة بدر الكبرى ، ويوم الفتح الأعظم ، وغيرها ، هى المقدمات الطبيعية لما يمور به المجتمع من قضايا وأفكار.

وكما يقول العقاد : فإن الشاعر الذي لانعرفه بشعوره لا يستحق أن يعرف ؛ لأن كلام الشاعر هو الصلة الكبرى بيننا وبينه ، فإذا لم يكن هذا الكلام معبراً عن نفسه واصفاً لها ، ممثلاً لشعورها فليس هو بطائل ، وإن كان معبراً عن النفس مستجمعاً لصفاتها وأطوارها فهو حسبنا من معرفة بالشاعر ، وترجمة لحياته لايزيد عليها التاريخ إلا ما هو من قبيل التفصيل والتفسير، أو من قبيل الحشو والفضول.

* * *

ومن هذا الشعر الذي نحس فيه تلك الصلة القوية بين الشاعر وخالقه أو بينه

(*)الكاتب:مدرس مساعد بكلية اللغة العربية بإيتاى البارود بحيرة.

وبين مجتمعه – قصائد عدة لشاعر من الذين مارسوا الدعوة الإسلامية عملاً وسلوكاً ووعوها علماً وهداية – ذلك هو الأستاذ الدكتور: أحمد عمر هاشم ٠

وشاعرنا يعرفه القراء والمستمعون داعية وفقيها ومحدثا وعالماً عظيماً وكثيرون يعرفونه - أيضاً - شاعراً مفلقاً يعيش واقع أمته الإسلامية وهموم مجتمعه فى قصائده الرائعة ٠(١)

ولقد عرفت الأستاذ الدكتور: عمر هاشم - شاعراً – فيما كنت أطالعه من قصائده المنشورة في أعداد متفرقة من المجلات الدينية، كمنبر الإسلام والأزهر في مناسبات عدة، وكنت أود لو تجمع هذه القصائد فى ديوان من الشعر ، يلم شتاتها ويجمع متفرقها حتى يفيد منها القارئ والواعظ ، ويترسمها الشاعر والمبتدئ على السواء ، وقد شاء الله - عز وجل - أن يوفق الشاعر لذلك ، فكان أن قرأت له ديوان " نسمات إيمانية "الذي أصدرته دار الشعب عام ١٩٩٠م ولا أدرى أهو والبردة كل شعر الدكتور أم أن هناك قصائد ظلت حبيسة، لم يقدمها للنشر والظهور بين يدى القراء؟ ولقد قرأت هذا الديوان مرة ٠ وأعدت قراءته أخرى ، فوجدت فيه شاعراً لانزاع فيه ، شاعراً يمتاز بسلامة العبارة، وحسن اختيار الكلمات ، وصحة الإيقاع ٠ وهو شاعر يحافظ على أوزان الشعر الخليلي ، وليس فى الديوان محاولة واحدة فيها شئ من مظاهر الخروج على الأوزان المشهورة، اللهم إلا ما نراه من التنويع فى شكل القصيدة والمقطوعة ، وهو شكل تقليدى ، سليم الإيقاع ، كثير الاستعمال عند فحول الشعراء٠

---

(١)من مقال منشور بالأهرام للكاتب ملحق الجمعة بتاريخ٢١/١/٢٠٠٠ص١٠

لقد جاءت قصائد هذا الديوان استجابة لنداءات وجدانية، وانفعالات صادقة، وتجارب روحية ونفسية عاشتها أمة موحدة ، وتمثلها شاعرنا الملهم٠٠ جاءت هذه القصائد لتشد على يد الشباب المسلم ، ولم تكن يوما عنوان ازدهاء أو مجال تفاخر ، بل ثمرة إخلاص وتطلع شديدين ٠

لقد كانت عواطف شاعرنا منذ صباه الأول - كما يقول الدكتور محمد رجب البيومى : " تجيش وتضطرم تعظيما بلغ درجة الهيام ، ولكنه من ناحية ثانية كان يخشى أن يقول مالا يعبر عن ذات نفسه صادق التعبير ، إذ يرى ما بجوانحه أقوى وأكبر من أن تسطر معانيه في أبيات، لذلك كان يتغافل عن هذا الهاجس الملح الدائب " (١)

وينتظم هذا الديوان إحدى وثلاثين قصيدة ، من بينها قصيدة بعنوان :" يوميات صائم " خص فيها كل يوم من أيام رمضان الثلاثين بشعر ، فهي بمثابة الملحمة الرمضانية المباركة ، وهى كلها قصائد من الشعر الكلاسى الخليلى ذي الشطرين ٠

والشاعر يتكئ على رصيد ضخم من الفكر والثقافة الدينية ؛ إذ كانت محل اهتمامه الأول فى حياته التعليمية والثقافية ، وقد انعكس ذلك على مضمونه الشعرى فى قصائد الديوان ، فتأسس بنيانه الشعري - بخاصة والأدبي بعامة -

---

(١) من مقال منشور بالأهرام للدكتور محمد رجب البيومى ص١٠ من ملحق الجمعة عدد ١٩٩٩/٢/٢٩م٠

على النهل من أصول التراث العربي والإسلامي بالشكل الذي أهله ليكون داعية ومفكراً وعالماً وشاعراً مفلقاً كما سبق أن أشرنا.

ونظرة متأنية في بعض قصائد الديوان تقفنا على تلك الروح الإيمانية العالية التى استلهمها الشاعر من فيض إيمانه، وعمق فهمه لدينه.ويستشعر القارئ هذا العمق فى فهم طبيعة الحياة،فى قصيدته "مناجاة " إذ يناجى فيها خالقه فى لحظات من التجلى والشفافية التى لاتمنح إلا لعبد وصل إلى درجة من القرب لا يرقى إليها إلا الأصفياء ، فيرى ربه فى كل خاطرة ، ويدعوه ويرجوه بالأنين والحنين والخشوع والبكاء غير مبال بالحياة ولا الممات، مادام على أمل اللقاء ، فقد سلك طريق العارفين ، فحسبه ذلك ، يقول مناجياً خالقه :

ياخالقى قلبى رآكْ	وبكل خاطرة دعاكْ
بأنينه وحنينه	وخشوعه الباكى رجاك
هو لا يبالى بالحيا	ة فحسبه منها هُداك
هو لا يبالى بالمما	ت فحسبه فيه لقاك
هوإن تجهمت الحيا	ة وساورته فى عراك
لا يستكين ولا يذل	كفاه ياربى نداك
سلك الطريق وحسبه	من هذه الدنيا رضاك

وفى قصيدته " ذكرى الإسراء والمعراج" يتخذ الشاعر من تلك المناسبة فرصة عظمى ليعبر عن ألمه الشديد لما ألم بأرض الإسراء من ظلم واعتداء،

وقد كانت حرية ألا تتعرض لذاك ، وأن يصرف عنها كل كيد ويرد عن ساحتها كل عدوان •

ويستبشر الشاعر بعودة الأرض إلى أهلها ، وهذا المسجد الأقصى " الأسير" الذي شهد - ذات يوم - هذا الجمع الحاشد المبارك من الأنبياء والملائكة الكرام ما باله اليوم أضحى أسيراً ، وما لهؤلاء المسلمين قد أضحوا لاجئين مكبلين ، مشردين ؟ فغداً ينكسر هذا القيد ويتمزق هذا الحصار ، ويعود اللاجئ إلى وطنه يتنسم رحيق الحرية فوق ثرى أرضه •

يقول الشاعر من هذه القصيدة:

أترى بقاع مثل هذى تستكين لمن عدا؟!
هى أرض ميعادى الحبيبة لن أضيعها سدى
قسما بمسجدها الذى أسرى له هادى الهدى
للروح والدم والبنون وكل ما بيدى فدا
فأخى هنالك لن يعيش على متاهات الردى
ما بين فوهة الفناء وبين زلزلة العدا
أيظل يحيا لاجئا ومكبلا ومشردا؟!
لا ، لن يظل ففجره القانى أطل على المدى
ليفجر الصبح الجرئ منعما وموردا
ويعيش فوق الأرض أرض النور حرا مسعدا!

وفى قصيدة " نداء من بيت المقدس" يصل الشاعر إلى قمة شاعريته حين يستنطق بيت المقدس بهذا النداء:

أنا القبلة الأولى ومهد العبادات أنا المسجد الأقصى وبيت النبوات

وكأن المسجد الأقصى إنسان عظيم سلبت- بل اغتصبت منه- كل أسباب عظمته دون ثائر أو غاضب لهذا الاعتداء الأثيم ، فهو يستغيث ويبكى مجده البائد متلمساً كل موضع مستحثا الأمة جمعاء على الدفاع عنه، وإلا تنكر لهم وأظهر البراءة منهم ، يقول شاعرنا على لسان المسجد الأقصى:

هنا صخرتى ثكلى، هنا قبلتى بكت فقد دنس الشذاذ أرضى وساحاتى
لقد أحرقوا عرشى،وقد أهرقوا دمى وكم أطفأوا نورى، وداسوا قداساتى!
فيا أمتى إن لم تذودوا وتدفعوا فلا كنتمو أهلاً لتلك الرسالات

ثم يعود فيذكرهم بما لهذا المسجد من ذكريات خالدة وتاريخ مجيد، هو جزء من عقيدتهم لا ينبغى التفريط فيه بأى حال، فيقول :

هنا مبعث المختارعيسى بن مريم هنا قبر إبراهيم رمز الأبوات
هنا موقف للحشروالنشر فى غد قريب إلى دنيا الخلائق آت
هنا ضاعف الله الثواب بمسجدى بخمس مئات أجر كل صلاة

ثم تكون نهاية القصيدة بمثابة صرخة تستحث الخطا إلى تحرير الأرض والنفس والمقدسات، معلنة أن ما أُخذ بالقوة لايسترد إلا بها .

فلا تطلبوا باللين حقاً مضيعاً فليس بغير السيف ترعى أماناتى

ولاتكاد دعوة الشاعر إلى الخلاص والتحرر تقتصر على أمة العرب وحدها، بل ما يُعنِّيه ويؤرقه هو حال الأقليات المسلمة فى كل مكان ، هي إذن دعوة عالمية إنسانية نابعة من طبيعة هذا الدين .

ففى قصيدة " حى على الجهاد" يعلو صوت شاعرنا منادياً كل المؤمنين أن يهبوا من رقدتهم ويفيقوا من غفلتهم ليقفوا صفاً واحداً فى وجه أعداء الدين الذين شردوا - بفكرهم الضال وقواهم الغاشمة - وتتبعوا كتائب الإيمان فى كل بقعة " يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون". ورغم ذلك فهذه الاقليات المؤمنة ثابتة على دينها لاتستكين ولاتلين، بل تجاهد وتجود بالنفس فى سبيل نصرة الحق ، يقول شاعرنا :

يا أخى آن الأوان فالأقليات عانوا

رغم هذا ما استكانوا جاهدوا حق الجهاد

يا أخى فى الله ناد

إنه يوم الثبات يومنا لا فى الغداة

إخوتى هذى قناتى جمعوا كل الأيادى

يا أخى فى الله ناد

أنا أفديهم بمالى وعتادى ورجالى

أهلهم أهلى وآلى أرضهم حقا بلادى

والدارس لشعر هذا الديوان يجد أنه يتخذ نمطين أوشكلين من أشكال القصيدة العربية المعاصرة فى صورتها التقليدية ، هما شكلا القصيدة والمقطوعة ،

فحيث نجد الفكرة متحدة متصلة مترابطة صعبة الفكاك بين عناصرها ، تكون ثم القصيدة هى الشكل الأمثل للتعبير؛ إذ " تعمل وحدة القافية واطراد النغم على إبراز وحدة الفكرة واتصال جزئياتها من ناحية ، وعلى تجسيم الإحساس بها وبه من ناحية أخرى " (١)

أما حين تكون القصيدة ذات أطر وحدود فاصلة بين كل منها ، فإطار المقطوعة هو الذي يصلح لها حيث يبرز تعدد المقطوعات تعدد أجزاء الفكرة ، كما يجسم تغير القوافى من الإحساس بتغير الأفكار ، وبإمكان القارئ ملاحظة هذا النمط فى قصيدتَىْ " شهر الحلم والعفو " و" اليوم الرابع والعشرون " وهما من أيام الصيام فى ملحمته الرمضانية ، حيث يمثلان الشكل النمطى الثانى، وهو نظام المقطوعة .

ومع إيمانى بضرورة التطور فى كل شئ إلا أننى أومن بأن الشعر لغة الوجدان ، وأن الموسيقى والأوزان والأخيلة هى رسل الحواس ، وهى كلها أيضا سمات فنية لاتتكاد تتوافر فى النمط الشعرى الذي يميل إلى الغموض والتيه ويجنح إلى دروب الخيال البعيدة والرمز الملغز.

والشاعر الذي يرغب فى الأخذ بسنن التطور، ومجاراة ما استجد من فنونه، ومتابعة ذلك فعليه أن يراعى ذلك فى لغته وموضوعه وطريقة التناول أيضاً ، مع الحفاظ على الشكل الموسيقى للشعر .

وشاعرنا الكبير الأستاذ الدكتور أحمد عمرهاشم لم يسر فى تلك الدروب

---

(١) مقدمة ديوان : نداء القمم د. يوسف خليف ص٢٠ ط/ دار الكاتب العربى للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٧م.

الموحشة ، ولم يسلك تلك المسالك الوعرة ، وقد آثر السلامة فجاءت قصـــائده موافقة للنسق العربي الأصيل والمتوارث للغة والشعر ، فجاء شـــعره واضـــح الفكرة ، سليم العبارة، سريع الإشارة ، فى قالب متين ، وموسيقى مطربة تـــهز الوجدان وتأسر الجنان ٠

وفى النهاية : فإن قصائد الديوان تنهض على عدة أبحر عروضيـــة منـــها: الكامل والخفيف والمتقارب والمتدارك والطويل والوافر ، استطاع الشـــاعر أن يطوعها لخدمة أغراضه الشعرية المتنوعة والمترابطة فـــى تـــألق وبراعـــة شديدين ٠

الالتزام ... في الأدب
تعمير للحياة

أ.د/ صفـــوت زيـــد

الالتزام في مفهومه العام .. هو التقيد بمبدأ ، أو عقيدة ، أو رؤية خاصـــة للأشياء لاينحرف الإنسان عنها ، ولايحيد عن مجاليها .

وهو بهذا المعنى سنة بشرية قديمة قدم الإنسان ، وليس بدعة من مستحدثات العصر الحديث .. إذ هو سمة الحياة فى أي مستوى من مستوياتها ، وفـــي أي تجمع إنساني ، بل إنه يتنوع ، ويتشكل ، ويختلف باختلاف الطبقات ، والفئات ، والتجمعات . وفق قواعد خاصة تخضع فى وجودها ، وتميزها لظـــروف كـــل طبقة ، أو فئة ، وما آل إليها من موروثات ، وعقائد ، وعادات منسجمة فيمـــا تشكلت به مع المجتمع ، أو نافرة منه خارجة عليه .

كما هو الحال فى طبقات الخارجين على القانون مـــن اللصـــوص وقطـــاع الطرق ومحترفى الإجرام ممن يشكلون حياتهم على نمـــط خـــاص ، وطرائـــق محددة ، يلتزم بها كل من شاركهم فى إجرامهم أو كان منتميا إليهم بأى سبب من أسباب الانتماء .

وكما هو الحال أيضا فى طبقات شتى من الخارجين على القيم والدين ممـــن يحملون شعار الفن .. وما هم فى واقع الأمر إلا دعاة رزيلة وحماة إســـفاف .

كأرباب المراقص ٠٠ وغيرهم من محترفي اللهو ٠٠ فهم أيضا لهم مبـــادئ ، وقيم يلتزمون بها ٠ ويدعون غيرهم ممن ينتظم فى سلكهم إلى الالتزام بها٠

والالتزام في الأدب هو التقيد بمبدأ ، أو بمفهوم ، أو بموضـــوع ، أو بشـــكل لايناهض قيم المجتمع ، ولايناقضها ٠٠ لأن الأدب - في رأينا - لابد أن يكـــون مقيدا بالدين ، والبيئة ، والجنس ، والحضارة ٠ حتى إن بعض النقاد المحدثيـــن يرى :" أن الالتزام فى الأدب يكاد يكون ضرورة من ضرورات الحياة " (١)

حيث يصعب على الوجود الإنساني في واقع تركيبه أن ينظر إلـــى الأشـــياء نظرة فنية خالصة بمعزل عن المبادئ الدينية ، والقيم الأخلاقية ، والاجتماعية ٠

وعلى هذا فالالتزام انتماء واع بأصل الإنسانية ، وبالينبوع الذي نبعت منه - الوطن - المجتمع ٠ (٢)

ويتمثل ذلك الالتزام فى مجموعة القواعد ، والقيـــود التـــى تـــم وضعـــها لاستقامة الحياة ، وتنسيق العلاقات ٠٠ وهي أمور قانونية ، أو أخلاقية (٣) تحتم على الإنسان أن يلتزم بالثوابت ، والأصول التى لا تتغير أبد الدهر ٠٠٠ ويبقـى الالتزام بها حفاظا على الحياة ، وحماية لها من الزيغ ، والفساد ، والانحـــراف ، والظلم والفتن ٠ (٤)

وعلى هذا فالالتزام : عدم تجاوز الحد الفاصل بين قيم المجتمع وتقـــاليده(٥) ومصطلح الالتزام وإن عرف حديثا إلا أن ذلك لايعنى أبدا أن الإبداع الأدبى(٦)

---

(١)أخبار الأدب ١٩٩٧/٥/٤ ٠ (٢) الأهرام ١٩٩٠/١/١٩

(٣) مدخل إلى الأدب الإسلامي د٠ نجيب الكيلانى ص٧٧(٤)السابق ص٨٣

(٥)السابق ص٨٠ (٦)الإبداع الأدبى : تعبير عن ما يجول فى وجدان الأديب وضميره من أحاسيس ، وآمـــال ، وآلام ، ورؤى ، ومذهبيات إنسانية عامة ٠ انظر : الإبـــداع ٠ للدكتـــور: عبدالحليـــم محمـــود السـيد ص٨ ومابعدها٠

والفنى فى العصور الماضية لم يعرف الالتزام عمليا ٠٠ بل نستطيع أن نقــول : إن آية الشعراء أرست الأساس النظرى للالتزام فـــى نظريـــة محـــددة المعـــالم والأبعاد٠

فالله جل جلاله يقول :

" والشعراء يتبعهم الغاوون ٠ ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ٠ وأنـــــهم يقولون مالا يفعلون ٠ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحـــات وذكــروا الله كثــيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا " (١)

فقد تحدثت الآيات الأولى عن المنفلتين السادرين فى غوايات الجهل والضلال وقد هاموا على وجوههم منطلقين من كل قيد وضابط ٠

ثم تحدث الآية الأخيرة عن شعراء المؤمنين الذين توافرت في ذواتهم معــالم الخير والحق التى حددها القرآن الكريم في الإيمان ، والعمل الصالح باعتبـــــاره ترجمة فعلية لما وقر في القلب ، واستقر في مستودع النفس ، ثم الذكر الكثير لله الأعظم والأعلى تعبيرا عن سمو النفس ، وارتفاع آفاق الهداية فيها إلـــى مقــام كريم٠٠٠ ثم بعد ذلك الانتصار بعد الظلم ٠ دليلا على قوة الردع الإيمانية فـــي مواجهة الزيف والضلال والرد على العدوان ٠

فالمستثنون في الآية " هم الملتزمون إسلامياً وقد حددت الآية صفاتهم بجلاء ووضوح٠(٢)

---

(١)سورة الشعراء٠الآيات ٢٢٤ - ٢٢٧ ٠

(٢)الأدب الإسلامي ضرورة د٠ أحمد محمد على ص٨٦ ٠

وهم الذين دافعوا عن الدعوة بشعرهم وجهادهم ، واحتضنـــوا قيــم الديــن ومبادءه بعد أن انجذبوا إلى كل ما هو قيم وأصيل ، وكل ما يرتفع بخطو البشر إلى آفاق علوية تحقق الخير للإنسان ، وتنظم مشاعره بعد أن تجاوب مع الدين ، وانفعل به ، فانطلق يبنى أمه ، ويقيم مجد حضارة ، كان الشعر أسمى أدواتـــــها وترجمان عظمتها فى كل عصر وجيل ٠ (١)

وقد كان الالتزام في الإسلام إنما يعنى الالتزام بمنهج وقيم تنبع أساسا مـــــن الإسلام وترتكز على تعاليمه ٠

ويتمثل - كما يرى بعض النقاد - فى معناه الواسع فـــى الطاعة٠٠والطاعـــة تجد النور الذي يهدى ، والغاية التى تتألق ، والوسيلة التى توصـــل ، والبينـــات التى تقنع،والتجربة التي تؤكد ،واليقين الذي ينداح سعادة كبرى بين الجوانح٠(٢)

لأن تعاليم الإسلام المطلوب طاعتها تلبى حاجات الفطرة البشرية في كـــل زمان ومكان ، وتلبي أشواق الروح ، وأشواق المادة ٠٠ الأمر الذي يجعل هناك توازنا بين الأمرين ٠٠ وهو الذي يجعل الأدب الإسلامي خـــالدا، ولايمكـــن أن يسقط ، ولا يجرى عليه ما جرى على غيره من الآداب ٠٠ لأنه تـــابع لـــهذه العقيدة ٠٠ وهذه العقيدة تحتـــوى علـــى عوامـــل الخلـــود ٠٠ وتتحـــدى كـــل العراقيل٠(٣)

---

(١)نظرات أدبية في عصر البعثة المحمدية د٠ صفوت زيد ص٣٢ ٠

(٢) مدخل إلى الأدب الإسلامي ص٨٠ (٣) المسلمون ١٩٩٢/٤/٢٤ ٠

ولذلك حين جمل الإسلام وجه الشعر ، وارتقى بمضمونه وجمله ، ووظفه في خدمة الحياة ، ودفعه إلى الالتزام استشرف به الآفاق الإنسانية المعاصرة(١)

ولم يكن الإسلام وحده هو الداعى إلى الالتزام في الأدب ٠٠ فإن كثيرا من المذاهب والاتجاهات القديمة والحديثة على السواء قد عرفت الالتزام ودعت إليه وإن اختلفت المبادئ والأفكار ، وتعددت التوجهات والمشارب ٠

فأصحاب الفن للفن يعملون فى إطار التزام معين ينطلق من وجهة نظرهم فى الفن وأبعاد رؤيتهم لوظيفته ٠٠ وكذلك كل المذاهب والتيارات لها توجهاتها الخاصة، ومبادؤها المعبرة عنها التى تلتزم بها٠

فإذا طلع أدعياء الأدب فى المرحلة الحديثة والمعاصرة ورفضوا فكرة الالتزام ٠٠ وأعلنوا جموحهم عنها ، وهروبهم منها بحجة " أن الالتزام قيد على الحرية ، ومناف للقيم الفنية والجمالية فإنهم أيضا - عندما يرفضون ذلك - ملتزمون بقواعد ومبادئ " (٢) وإن كانوا يرفعون شعار التحرر ويدينون بالحرية المطلقة والحجة التى يواجهون بها أنصار الالتزام الأخلاقي حجة واهية لأن الالتزام لايناقض الحرية بل ينظمها ويوجهها نحو الخير ٠٠ والرقابة الموجودة في كل المجتمعات تقريبا ليست قيدا على الحرية ولا حجرا على الإبداع ٠٠ فالحرية والالتزام أمران مؤتلفان وليسا نقيضين متنافرين ٠ (٣)

---

(١)الشعر في الإسلام د٠ أحمد فؤاد الغول ص ج١

(٢)انظر : مدخل إلى الأدب الإسلامي ص ٧٦ ٠

(٣) الأدب الإسلامي ضرورة ص ٩١ ٠

وقد تجلى ذلك بوضوح فى الإسلام ٠

فالرسول صلى الله عليه وسلم لم يحجر على الشعر ، ولم يناهض سائر القوالين إلا من سار منهم فى دروب الشر ومزالق الضلال ، ومن انحدر منهم فى مساقط الذلة والرزيلة ٠٠ ومن سخر بيانه لتأريث الفتن ٠ (١)

لأن كل ما يطلبه الإسلام من الأدب والفن " أن يختفى من مسرحه إسفاف الغواية حتى يستطيع أن يؤدى رسالته فى التوجيه طاهرا مطهرا كريما٠

والفن النظيف لن يعفى فى كل أحواله وألوانه من قواعد النظام العام والآداب فى التأليف والإبداع٠ (٢)

ومن عجيب الأمر أن الذين يرفضون - الآن - الالتزام كانوا هم أشد الناس حرصا عليه ٠ ودعوة إليه ، وإلزاما به ٠٠ وقد كان نوعا من الالتزام وجه لخدمة الماركسية التى يدينون بها ، ويعملون بإخلاص لها ٠

فقد كانوا في أدبهم يتحدثون دائماً عن أدب " الوعى الاجتماعى" ٠وهو ذلك الأدب الذي يتناول الصراع بين الطبقات لمصلحة الطبقة " الدنيا" في المجتمع أو ما يسمى بلغة البلاشفة " البروليتاربا" كما وصل بهم الغلو فى الدعوة لهذا النوع من الأدب أن جعلوه فرضا مفروضا علي جميع الأدباء بوصفه ضريبة إنسانية على كل فنان ٠

---

(١)الشعر في الإسلام د٠ أحمد فؤاد الغول ص ج

(٢)آراء تقدمية من تراث الفكر الإسلامي ٠ فتحي عثمان ص٨٥ ٠

وهذا الغلو ليس له ما يبرره من الناحية الفنية ٠٠ بل من الوجهة الإنسانية أيضا ٠

وقد تابعوا فى ذلك رواد الاتجاه فى روسيا ٠ حيث حدث فعلا أن الجهات السياسية الحاكمة فيها دعت الفنانين والأدباء إلى مناصرة الفكر السياسى الاشتراكي الذي أصلت له الثورة البلشفية ، والدعوة إليه ، وتعريف الناس به، ورفض أي أدب لا يمثل هذا النظام ٠

فقد صدرت تلك الدعوة كتوجيه سياسي من اللجنة المركزية للحزب الشيوعي سنة ١٩٢٥ ٠

مع أن الأمر - كما يرى بعض النقاد - لم يكن بحاجة إلى مثل هذه الجبرية الفاعلة والالزام السياسى لأن ما حدث من تغييرات فى شكل الحياة كفيل بأن يحقق ذلك دون حاجة إلى تسلط سياسي ٠ (١)

وفرق كبير جدا بين الإلزام والالتزام ٠ فالإلزام الذي حاولوا أخذ الأدباء جميعا به - عندنا في مصر - بعد التحول الاشتراكي عام ١٩٦١م يحول الأديب مرغما إلى بوق للسلطة ، ومترجم لفلسفتها في الحكم والتوجيه٠

---

(١) أنظر: تيارات ومذاهب في النقد الأدبي الحديث٠د٠صفوت زيد ص٧٥-٧٦ وانظر:الخلاصة في مذاهب النقد الغربي د٠ على جواد الطاهر ص٣٣ والاتجاه الواقعي في الرواية العربية الحديثة في مصر٠ د٠ حلمي بدير ص١٠٠ ٠

أما الالتزام فهو عدم تجاوز الحد الفاصل بين قيم المجتمع وتقاليده كما سبق أن بينا ٠٠

والإسلام الذي يحاول اليساريون وأشياعهم النيل منه لم يلزم شاعرا بما دعا إليه ، ولم يحمله عليه ، ولم يكرهه ٠٠ ولكنه دعاه إلى ذلك وحث عليه ، واستحسن واستقبح ، ورضي وكره ، وتركهم أحرارا فيما يقولون إلا أن يستبيحوا المحرمات ، ويشيعوا الفواحش ، ويهزأوا بالدين ، ويسخروا من الأنبياء فحينذاك يكونون قد تجاوزوا حد المباح ، وقد يلقون فى ذلك اللوم ، أو العقاب ، أو الاستهجان٠ (١)

أما أولئك الذين يرفضون الالتزام الآن ٠٠ فقد كان لهم ماض حافل بالقهر والتسلط ضد مخالفيهم من الأدباء الذين لم يتلاءموا مع ما كانوا يدعون إليه ، وما كانوا يلزمون الناس به ٠ من تلك القيود العنيفة التى صنعوها لقضية التعبير، عندما ربطوا الحرية بالموضوع التعبيرى ٠٠ وكانوا لايسمحون بالحرية إلا إذا كان الموضوع يتصل بقضايا الطبقة التى يعبرون عنها أما إذا كان الموضوع خارج هذا الإطار ٠٠ فلا تعبير ولا حرية وقد أفنوا عمرهم - كما يقول الدكتور جلال أمين " في تعليم الناس أنه ليس هناك شئ اسمه الحرية المطلقة ، ودافعوا دفاعا مستميتا ضد نظرية الفن للفن ، وضد حرية الأديب في أن يقول ما يشاء أيا كان موقعه الطبقي ٠

---

(١) مدخل إلى الأدب الإسلامي ص ٧٧ ٠

والعجيب أنهم الآن يدافعون عن الحرية المطلقة فى التعبير ٠ (١)

وهذا الموقف منهم إن دل على شئ فإنما يدل على تلون رؤيتهم للأشياء، وتذبذب ولائهم لسلطان السياسة تبعا لأهوائهم ، ووفقا لما تمليه عليهم مصالحهم وضرورة التوافق مع النظام القائم ، وحتمية التجاوب معه حتى لو كان ذلك على حساب منطلقهم الفكرى ، وتوجههم المذهبي ، وهم أحرار فيما يفعلون ، وعليهم وحدهم تقع تبعة هذا التلون البغيض أمام الأجيال ٠

ونحن أيضا لنا مطلق الحرية فى رفض مسلكهم ، والتوجه إلى ترسيخ قيم الالتزام أمام المبدعين ٠

وقد ألمحنا فيما سبق إلى أن الالتزام الذي نعنيه ٠٠ إنما هو الالتزام الإسلامي الذي انطلقت مواكب المبدعين منه مع بدء الدعوة ، وظلت مستمرة فى مسيرتها العملاقة عبر كل الأجيال ٠٠ فصاغت على ضوئه وجدان الأمة ، وحددت من خلاله هويتها ، ورسمت على أساسه تقاليد الحياة ، وقيم السلوك محققة كل الخير للأمة الإسلامية ، وضاربة المثل الأعلى للإنسانية ٠

أ٠د / صفوت زيد

---

(١)الدستور : ١٩٩٧/٣/١٩ م٠

اليهودية السمراء فى روايتين

ملاحظات على تنوع رؤى الكتاب لشخصياتهم بين الرومانتيكية والواقعية

أ٠د/ أحمـــد إبراهـــيم خليل

(١)

عندما يكون القالب الروائي وسيلة الأديب والقارئ للتعرف علـــى الواقـــع واكتشاف أبعاده الغائرة وجوانبه المظللة العميقة، فإن تنوع الشخصيات القصصية في أجناسها وطبائعها وتقاليدها ومعتقداتها يصبح أمرا ضروريا في داخل العمـل الفني مادام ذلك التنوع يعكس واقعا معيشا وملموسا في واقع الحياة ، وفى نسـيج الوطن العربي المعاصر الذى تلتئم مجتمعاته بوحدة الدين واللغة خيوط متنوعـــة من المعتقدات والتقاليد وربما فى الجذور المختلفة المنابت تداخلت وامتزجت فـى سماحة إنسانية خصبة ورحيبة وانصهرت جميعا فى بوتقة التحديات والطموحات المشتركة التى تعتمل فى قلوب سكان هذه الأرض، بحيث أمكن لوحدة الأفراد فى أحلامهم ومواجعهم أن تنحى جانبا أثر اختلافات العقائد والتقاليد، فعـــاش أبنـــاء الضاد من أكثرية غالبة، وأقليات محدودة من مسلمين ومسيحيين ويـــهود ومـن سكان مدن وأرياف وبواد فى تجانس منسجم وتوافق خلاق تجمعهم آلام يسـعون إلى تخطيها وآمال يعملون على إنجازها غير أن الصراع العربـــي الصـــهيونى الذي ألقى بظلاله على المنطقة طيلة العقود الأخيرة كان سببا مباشرا فى التهاب العلاقات الإنسانية بين بعض الخيوط التى تكون منها النسيج البشـــرى للبـلاد٠ وذلك أمر بديهي ما دامت أطماع الدول الاستعمارية قد تدخلت لتزرع فى قلـب

الأرض العربية نبتة غريبة عنها وتزاحم المشاعر القومية الناهضة فيها بكيان مصطنع مشوه تحت اسم الصهيونية فلم يكن من المعقول أن يحدث انسجام أو توافق بين قومية أصيلة ضاربة بجذورها فى أعماق التاريخ وبين خليط غير متجانس من العناصر التاريخية والأسطورية والتناقضات الأيديولوجية والديموغرافية التى أريد لها أن تكون أساسا للمجتمع الإسرائيلي.

وبداية من المهم أن نفرق بين هذه المصطلحات الثلاثة التي قد تتداخل أحيانا ويؤدى بعضها إلى بعض إلا أنها مع ذلك مختلفة فيما بينها اختلافا لاشك فيه، وهي: اليهودية ،والصهيونية، والإسرائيلية، فالأولى: ديانة سماوية لها قدرها فى تاريخ الأديان ،ولها قداستها عند عامة المتدينين، ومعتنقوها فى عرف المسلمين يسمون أهل الكتاب الذين " ليسوا سواء" ولهم حق البر والقسط ماداموا لم يقاتلونا فى الدين ولم يخرجونا من ديارنا أو يظاهروا على إخراجنا بنص الآية القرآنية الكريمة.(١) وقد عاشوا داخل المجتمعات الإسلامية في مختلف العصور يتمتعون بحقوق أهل الذمة فى أمن واستقرار ويرتقون فى عصر الدول الدينية إلى مراتب الوزراء ويساهمون بدور ملموس فى الرقى الفكري والعلمي الذي أحرزته الحضارة العربية، فمنهم الأطباء والفلاسفة والمترجمون وسواهم من أصحاب المهن الراقية والصنائع المختلفة، وحين نكب المسلمون فى الأندلس أواخر القرن الخامس عشر طرد معهم اليهود بأوامر الدولة الأسبانية وكأنهم

---

(١) انظر على سبيل المثال آية(١١٣)سورة آل عمران، وآية(٨) من سورة الممتحنة.

حسبوا عليهم • وأما الصهيونية فهى تلك النزعة العنصرية التي تدعى وجود قومية واحدة تجمع يهود العالم على اختلاف لغاتهم وأجناسهم ومواطنهم وتعمل على تفريغ جزء من الأرض العربية من سكانها لإحلال المهاجرين اليهود محلهم ولذلك كان ظهورها واقتحامها الشرق العربي نذيراً ومصدراً لكوارث إنسانية لا أول لها ولا آخر فأين يذهب العرب المطرودون من ديارهم؟ وأين تنتهي حدود هذه الدولة المستحدثة ؟ وأي مساحة من الأرض تكفى لتوطين ملايين اليهود المنتشرين فى أنحاء العالم ؟ وهل يستطيعون التعايش مع أنفسهم فضلا عن التعايش مع جيرانهم وهم بهذا القدر من الاختلاف والتناقض فى اللسان واللون، وحتى فى العقيدة فنحن نسمع عن استعلاء اليهودي الغربي "الأشكنازى" على نظيره الشرقي "السفرديم" وعن التناقض بين اليهود المتدينين والآخرين العلمانيين وكيف لاتؤثر هذه التناقضات والمشاكل على حاضر المنطقة كلها ومستقبلها؟ وأما " الإسرائيلية" فتشير إلى جنسية يتمتع بها مواطنو الدولة العبرية وهي في الوقت نفسه حق مكتسب لكل يهودي في أي مكان على الأرض بموجب القوانين، وذلك يضيف مشكلة إلى المشكلات التي أثارها وجود دولة إسرائيل فكيف يطمئن اليهودي العربي داخل المجتمعات العربية وهو - بدون أن يطلب - يحمل جنسية دولة معادية للدولة التي نشأ وعاش حياته منتمياً إليها؟ وكيف ينظر أبناؤها إليه؟

ومع خطورة كل هذه المشكلات المصيرية وبرغم حساسيتها الشديدة التي تجعلها خليقة بتكوين شخصيات إنسانية ذات طبيعة متميزة وتثير العديد من القضايا المهمة والموضوعات المثيرة فإن نموذج اليهودي العربي المعاصر لم يلق من كتاب الرواية العرب الاهتمام المناسب ،ولم يظهر سوى فى أعمال

قصصية محــدودة للغاية وفى صور فنية بالغة التواضع لاتتيح له إلا دوراً ثانوياً أوهامشياً باهتاً يتسم خلاله بسمات نمطية متكررة موروثـــة عن (يهودي مالطة) و(تاجر البندقية) تجعله شخصية باهتة جاهزة الصنع مفرغة من أيـــة حيويـــة وعمق عاجزة عن النمو وعن إشعار القارئ بجديتها وصدقها •

ومن أوائل الكتاب المصريين الذين حرصوا على إبراز صورة اليهودي كفرد والجماعات اليهودية ودورهم فى المجتمعات العربية وعلاقتـــهم المتبادلـــة مـــع المصريين والجاليات الأجنبية فى مصر قبل ١٩٤٨ وبعدها: إحسان عبد القدوس فى " أنا حرة"١٩٥٤و"لاتتركونى هنا وحدى ١٩٧٩" وفتحى غانم فى " الأفيـــال" ١٩٨٢م و"أحمد وداود ١٩٨٩"•(١)

وإذا كان هذا النموذج قد أخذ فى " أنا حرة" و " الأفيال" موقعاً ثانوياً محــدوداً فقد استحوذ فى الروايتين الأخريين على مساحة عريضة تتيح الفرصة لدراســـته ورصد الملاحظات الفكرية والفنية عليه ولذلك ستكون الشخصية اليهوديـــة فـــى روايتى "عبد القدوس " وغانم المتأخرتين هي موضوع هذا المقال•

(٢)

فى سنة الثورة الوطنية الكبرى ولد إحسان فى ينـــاير ١٩١٩م لأب يعمـــل بالتمثيل والغناء وأداء (المونولوجات) الفكاهية وأم هجرت التــمثيل فى أوج

انظر مقال رمضان بسطاويسى في مجلة عالم الكتاب عدد يناير ١٩٩١ ص١٣٧

نجاحها لتندفع بكل قوة فى ميدان الصحافة فتنشئ مجلة باسمها تملؤها بالموضوعات السياسية والاجتماعية العنيفة وتستكتب فيها مشاهير العصر كطه حسين والعقاد ومحمد التابعي ولكنه لم يقم معهما فى القاهرة فقد انفصلا منذ ولادته ليعيش فى كنف جده لأبيه العالم الأزهري " أحمد رضوان " فى قرية كفر مأمونة زفتى ، الدقهلية ولا يرجع إلى القاهرة إلا فى سن الثامنة عشرة ليلتحق بكلية الحقوق ويعيش مع والدته ويعمل بالصحافة ويتسلم رئاسة تحرير المجلة بعد أن يكون قد جرب العمل بالمحال التجارية فى الإجازات المدرسية وبالمحاماة والسمسرة بعد تخرجه. وتشغله هواجس الكتابة الأدبية منذ سن مبكرة ويجرب كتابة الشعر والزجل ثم يكف عن ذلك قبل بلوغ العشرين بإرشاد من والدته التى لم تكن تريد له سوى أن يكون صحفياً محترفاً ويصبح أصغر رئيس تحرير لمجلة راسخة الأقدام فى مصر فى الأربعينات ويشن عدة حملات سياسية جريئة تكشف عن شجاعته ووطنيته وهيامه بحرية الرأى كان من أشهرها سلسلة مقالات كتبها فى ١٩٥٠ فجر من خلالها ما عرف بقضية الأسلحة الفاسدة التي نسب إليها فى ذلك الوقت التسبب فى هزيمة الجيش المصري فى حرب ١٩٤٨ م وأشير خلالها بإصبع الإتهام إلى القيادات السياسية والعسكرية والقصر الملكي والمندوب البريطاني فى مصر وعدت حينها إرهاصاً منذراً بتغيير شامل فى الحياة العامة للبلاد، ومن أشهر مقالاته أيضاً السلسلة التي انتقد فيها التوجه الديكتاتوري لثورة ٢٣ يوليو ،وفي مقالة تحت عنوان (الجمعية السرية التى تحكم مصر) بتاريخ ٢٢ مارس ١٩٥٤م دعا الضباط الأحرار إلى تأسيس حزب سياسي خاص بهم يعلنون فيه برنامجهم ، وإلى إطلاق حرية الأحزاب وعودة الديمقراطية الدستورية وعلى إثرها زج به إلى المعتقل وأمضى فيه ثلاثة أشهر

انصرف بعدها تماماً إلى الكتابة الأدبية ٠ وكان قد أصدر قبل أعـوام روايتيـن ومجموعة قصصية ولكنه بالتركيز على هذا الاتجاه مـالبث أن أصبـح أغـزر الكتاب إنتاجاً وأكثرهم شعبية٠

ثم رجع منذ أواخر الستينات إلى السياسة فى مقال أسبوعي بـالأهرام تحـت عنوان (في مقهى على الشارع السياسي) ولكن بعد أن أصبح فكره وأسلوبه أكثر هدوءاً إلا أن قضيته الأساسية ظلت دون تغيير طوال حياته سواء فـي كتابتـه السياسية أو الأدبية متلخصة فى الدفاع عن الحرية الفـردية والالتزام الأخلاقـي ومحاربة الفساد والانحراف فى مختلف مظاهره الخاصة والعامة٠

ومع كثرة نتاجه القصصي الذي لا يقل عن خمسين كتاباً مابين رواية طويلة وقصة قصيرة اتسم أسلوبه بسهولة مفرطة ربما بتـأثره بـالعمل الصحفـي أو بطبيعته الشخصية فقد عرف بأنه لايراجع شيئا يكتبه واكتسـب معظـم ثقافتـه الفكرية والأدبية من مشاهداته العابرة ومطالعات الصبا الباكر ولذلك يصف نفسه بأنه لم يتتلمذ على أحد من كبار الأدباء ولم تخل أعماله من بعـض السـطحية والتناقض عند التمحيص واتهم بالإفراط فى تتبع تفصيلات لا لزوم لها فى العمل الفني كما اتهم بتعمد إثارة غرائز قرائه بالإلحاح على الموضوعات الجنسـية ٠ أما هو فيرى نفسه كطبيب يعرى الإنسان ليكشف عن علله وأمراضه وأن هـذه هي طبيعة كل أدب صادق ويشبه نفسه ببلزاك وفلوبير من أدبـاء فرنسـا فـي أواسط القرن التاسع عشر ويؤكد أنه لم يتعمد الإثارة بما يكتب وأنه إنمـا كـان مشغولاً بتحليل نفسية المرأة كعنصر أساسي فى المجتمـع والبحث عن أسباب

الزلل والانحراف • وفي الواقع أن المشكلات المترتبة على ممارسة الحرية الاجتماعية ملأت الحيز الأكبر من أعماله وإن كان اختياره لشخصياته من الطبقة الأرستقراطية ومن الشرائح المتمصرة أحيانا وخصوصاً في رواياته المبكرة جعل القارئ يحس بغربتها عن واقع المجتمع المصرى•

ولم يمنعه هجوم النقاد عليه فى الخمسينات من مواصلة الكتابة على طريقته الخاصة فقد استعاض عن هجومهم ثم إهمالهم بالنجاح الجماهيري العريض المتمثل في توزيع كتبه وفي نقل معظمها إلى السينما والإذاعة والتليفزيون • والآن ما أهمية كل ذلك بالنسبة إلى موضوعنا؟ ربما كان إلقاء الضوء على حياة الكاتب الشخصية وسيلة ضرورية لتفسير اهتمامه بشخصيات الرواية موضع البحث ثم لقبول التفسير السياسي المحتمل للنص الأدبي فإذا لم يكن لمؤلف القصة اهتمامات سياسية فمن أين لنا أن نؤول أحداثها تأويلاً يتناسب مع مجريات الأمور العامة التي ظهرت القصة في خلالها• ولنا أيضاً أن نضع اهتمام الكاتب بالشخصية السوية بالتحديد فى عالم اليهود المصريين في إطار اهتمامه بقضايا المرأة والموضوعات المتعلقة بحياتها الداخلية وهو نفسه أشار فى مقدمة الرواية إلى مخالطته لليهود المصريين الذين عمل معهم فى الأربعنيات وكان له منهم أصدقاء كثيرون هاجروا بعد ذلك • وربما تكشفت لنا أوجه ارتباط أخرى بين حياة الكاتب وطبيعة أعماله القصصية وبين هذه الرواية بالتحديد بعد استعراض أهم أحداثها وشخصياتها

(٣)

وبطلة الرواية لوسيان هنيدى الشهيرة بلوسى مغربية الأصل هاجر أبوها مع

جدها إلى مصر قبل الحرب العظمى الأولى وإن كانت لاتتذكر قط أنه راسل أو اتصل بأحد من أعمامه أو أقاربه في المغرب • نشأت في أسرة فقيرة وتمتعت بجمال مثير لافت وتزوجت من زكى رؤول موظف بسيط في محل تجارى وأنجبت له ياسمين وإيزاك أحبت زوجها فى مطلع شبابها ولكنها ما لبثت أن ملت حياتها المتواضعة وتاقت للصعود إلى الطبقة الأرستقراطية وتمنت لو ترتفع إلى مستوى العائلات اليهودية الكبيرة بمصر في ذلك الوقت (شيكوريل وعاداة وقطاوى) واستطاعت بسهولة إقناع زوجها أن تكون عاملة (ما نيكير) فى صالون فخم بوسط البلد تعرفت فيه بأثرياء عديدين سهلوا لها الحصول على شقة فاخرة فى جاردن سيتى ثم ألقت شباكها على شوكت ذو الفقار إقطاعى مصري من أصول تركية وتوطدت علاقتها به حيث رأت فيه سبيلاً لتحقيق أحلامها الطبقية وتخطت كل العقبات فأعلنت إسلامها وتحولت إلى زينب هنيدى للتخلص من زوجها وتسهل لنفسها الزواج بالإقطاعى الأرمل واجتهدت لتندمج فى حياتها الجديدة بين الطبقة الأرستقراطية ثم توفى شوكت بك بعد أن أنجبت له هاجر وترك لها قصراً وثمانين فداناً على ترعة المنصورية وأموالاً سائلة• وضغطت على أعصابها أحداث ١٩٤٨م ومعركة ١٩٥٦م بمقدار أكبر خصوصاً وأن ابنها كان قد هاجر عن مصر لا تدرى إلى أين ؟ فكانت تتخيله -بجزع- يتقاتل مع ابن زوجها المسلم مدحت ذو الفقار على أرض سيناء أو تتصور لو كانت هاجر ولداً لكان من المحتمل أن تقف يوماً ما فى مواجهة أخيها لأمها• ومن يدرى ربما حدث هذا لأبنائها مع أبناء إيزاك فيتقاتل أبناء الخؤولة وإذا وجرجرت كارهةً لحديث الحرب كانت تردد أنها تكره الحرب لأنها تريق الدماء• وفكرت بعد أن مرت أحداث العدوان الثلاثى بخير فى حاجتها إلى

الحماية فاليهودي في رأيها لا يستطيع أن يعيش إلا في حماية فتزوجت بفـــهمي جار الله كان من ضباط الثورة ثم أصبح رئيساً لإدارة إحدى شركات القطاع العام وعلى الرغم من أنها اقتنصت لياسمين زوجاً ثرياً أيضا إلا أنـــه كـــان ســكيراً فأضاع ما بقى من ماله بعد تحديد الملكية على الخمـــر واشـــتركت " ياســمين" وصديقتها " خديجة" فى مشروع تجارى ناجح اجتذبت إليه سيدات البترول علـــى حد تعبيره وفي أواسط الستينات أحست ياسمين أن مصر تضيق بنجاحـــها فـــى العمل التجاري لوفرة ماتدره عليها العلاقات المشبوهة فانتقلت هـــي وصديقتـــها بنشاطهما إلى باريس ففيها متسع أكبر للسهرات الصاخبة التي تعدانها لســـيدات البترول٠

"وحين(*) انطلقت حرب ١٩٦٧ سقطت زينب تبكى، طول يومها تبكى، وكل أيامها بكاء لا تستطيع أن توقف دموعها ولا تدرى لمـــاذا كـــل هـــذا البكـــاء" ص١٨١وأما هاجر فقد نشأت بمزاج منحرف تتهرب من ماضي أمها اليهوديـــة وتبحث عن الماضي الأرستقراطي الضائع لأبيها المتوفى واخوتها من أبيها الذين لم يسألوا عنها وفي النهاية تزوجت بشاب يعمل فى السلك الدبلوماسي سافر بـــها إلى " باماكو" وهكذا تأتى السبعينات على زينب وقد هاجر ثلاثة أبنائهاوعاشـــت فى قصرها لايؤنس وحدتها إلا " خضرة" و"نعيمة" من نساء القرية القريبة فـــى أرض المنصورية وبدأت حرب أكتوبر " وسقطت تبكى كل يومها كعادتها فى كل حرب دون أن تدرى لماذا تبكى" ص:١٩٥ ٠

(*) النصوص المنقولة من الرواية طبعة مكتبة مصر ١٩٧٩ وأما النصوص المنقولة في رواية (أحمد وداود) فمن طبعة روايات الهلال عدد٤٨٦ يونية ١٩٨٩م٠

ولسان دموعها ينادى إيزاك وياسمين وهاجر وربما أيضا زكى وشوكت وفهمى جار الله (لا تتركوني هنا وحدى) وتنتهي القصة وهى تسأل نفسها "لماذا لاتعود لوسى كما كانت لوسيان هنيدى تعود يهودية وتسافر إلى باريس وتعيش مع ابنتها ياسمين أو تسافر إلى إسرائيل لعلها تجد ابنها إيزاك وتموت وهو فى عينيها ، موت فى الأرض المقدسة ، أرض الميعاد ولكن لا، إنها لا تستطيع، لقد بنت كل يوم من أيامها هنا فى مصر، كل يوم بنته بنفسها، كل يوم أطلقت فيه لمعة من النجاح، والنجاح هو الحياة هو الوطن أينما نجحت فأنت فى وطنك" ص: ١٩٤ .

ولكن هل نجحت حقا زينب أو لوسى أو لوسيان هنيدى فى حياتها؟ لقد امتلكت الأموال الطائلة والأفدنة الثمانين فى المنصورية والقصر العامر أي نوع من العمار؟ إن ابنها فر منها إلى إسرائيل (ربما) ليحارب البلد الذى تعده وطنها وابنتها (هاجر) هجرتها متنكرة لها وابنتها (ياسمين) تنشر عبق الفساد فى عاصمة النور ومن يدرى ربما استطاعت فى زمن الانفتاح أن تمد خيوط شبكتها بالتعاون مع خديجة وتفتح لها فرعا كبيراً بالقاهرة !

(٤)

لقد اجتهد إحسان عبد القدوس فى رسم شخصية قصصية حقيقية سواء فى أبعادها الواقعية أو على المستوى الرمزى وجمع فى عملية صياغتها بين أسلوب التقدير والتصوير فوضع فى الفصول الأولى عدة تقارير مطولة بدون داعٍ وحاول إثبات صحة أحكامه الأولية المسبقة من خلال الأحداث التالية وأدى هذا إلى فقدان العمل الفنى بعض مصداقيته بالإفراط فى الدعاوى المجردة يقول مثلاً:

" كانت زينب يهودية مسلمة وليس فى هذا التعبير أي تناقض فصفة اليهودية بعد كل هذه المئات من السنين التاريخية الشاذة وكل هذه الأحداث التى عاشـــها اليهود لم تعد - أي اليهودية - صفة دينية ولكنها أصبحت تعبر عن شــخصية أي أن اليهودية ليست ديناً ولكنها شخصية وهى شخصية تتغلب على أي شـــخصية أخرى يمكن أن ينتسب إليها اليهودي فاليهودي هو أولاً يهودي وبعد ذلك يمكـن أن يكون أي شئ كأن يكون يهودياً فرنسياً أو يهودياً أمريكياً أو يهودياً روســياً ومهما تنقل من جنسية إلى جنسية فهو أولاً يهودي وكذلك لو تنقل من دين إلـــى دين فلو اعتنق المسيحية فهو يهودي مسيحي ولو اعتنق البوذية فهو يهودي بوذي وقد اعتنقت زينب الإسلام فأصبحت يهودية مسلمة وربما كانت زينب تبالغ فـــى اتباع كل شعائر وتقاليد الإسلام ولكن شخصية اليهودية ظلت دائماً هى الطـــابع المسيطر عليها الشخصية التى ترسم اتجاه فكرها وانطلاقات أحاسيسها وعواطفها وترسم خطواتها وتصرفاتها وحتى اختيار كلمـــاتها وتضعها فى العالم الـــذي يتميز به اليهود ، عالم الطموح الذي لا نهاية له والصبر الذى لا ينتـــهى أبـداً والذكاء الصامت الذي يتعمد إخفاء نفسه " ص : ١٠ .

فى هذه السطور نجد أن المؤلف قد أتم رسم شخصية بطلته وتحديد أبعادهـــا النفسية وتحليل طبيعتها وأشار مقدماً إلى عقدة حياتها إلى نهايتـــها ومصيرهـــا المحتوم وبذلك لايبقى ما يدعو القارئ إلى مواصلة القراءة إلا إذا كان يهمــــه أن يرى كيف تحققت هذه الدعاوى المجردة المقررة سلفا ومع هذا فــــإن حلــــــة الفنان أمدت الفصول التالية بما يجعل الشخصية القصصية ذات طبيعة إنســـانية لاتخلو من حيوية وصدق برغم تناقضاتها التى تهز صورتها في خيال القـــارئ فهى مثلاً نشأت غير متدينة ولاتصلى ولا تزور المعبـــد ولا تحـــترم الســـبت

ولاتحب خبز الكوشير الذي يأكله اليهود فى مناسباتهم الدينية على خلاف أختها "ليزا" التى تصوم الإثنين والخميس وإذا طرق بابهم مندوب وجمعية " نقطة اللبن " صرخت لوسى فى وجهه " لماذا لا تأتون إلا إلينا نحن الفقراء ؟ لماذا لا تأخذون من قطاوى وعدس ومزراحى وأصحاب الملايين ؟ وأما ليزا فتعتذر إليه وتطلب عشر (كوبونات) وتسأله أن يعود إلى بيتهم قريباً ٠ وكذلك كان أبوها أكثر تديناً يتلو المزامير ويحترم تقاليد السبت الذى تضيق به ٠ ونحن قد نفهم بذلك سر انتقالها المفاجئ إلى الإسلام ونفهم أيضاً مرورها بمجرد إشهار إسلامها على المعبد اليهودي فى شارع الملكة فريدة وهي تبكى بمرارة لأن مفارقة الدين على أي حال ليست أمراً سهلاً ولكننا لانفهم سر حماستها فى ممارسة الشعائر الإسلامية من صلاة وصيام وزيارة لضريح الحسين والسيدة زينب واستحضار القارئ ليتلو القرآن فى بيتها كل صباح حتى بعد وفاة شوكت بسنوات وكيف يتفق هذا مع ممارستها للغرام بحرية فجة مناسبة فقط لما اشتهرت به بطلات إحسان ٠

وعلى الرغم من طموحها الذى لاحدود له وصبرها الذى لاينتهى وذكائها المحب للتستر ، تلك المزايا التى زعم المؤلف أنها خصائص الشخصية اليهودية بصفة عامة ، فإنها لم تنجح بل لم نرها تحاول مد جسور التواصل مع أهل زوجها المسلم خصوصا بعدما قطعت كل صلاتها بأقاربها ومعارفها من اليهود المصريين وخصوصاً وهي تعرف قيمة اتصالها بعائلة شوكت بك الكبيرة وتنصح ابنتها ياسمين بالبقاء فى مصر للانتفاع بهذا الاسم الخطير الذى لن تكون له قيمة خارج البلاد وصحيح أن الأرستقراطية المصرية أعطتها زهرها ولم

تنس أنها يهودية أو كانت وأن عائلة ذو الفقار لم تنس لها أنها اختطفت الرجل وجزءاً كبيراً من ثروته ولكن ذكاءها وصبرها كانا جديرين بالعمل على حل هذه المشكلة البسيطة بدلاً من أن تترك ابنتها الصغرى هاجر تنشأ بهذا الضياع والتعقيد .

وفى الواقع أننا لم نر من ذكاء اليهود على لوسى إلا تلك الحيل النسوية الساذجة التى اختطفت بها شوكت والتي لا تستعصي علي كيد أي امرأة غير يهودية إذا لم تمنعها أخلاقها . وأين ذكاء اليهود هذا وطموحهم من زوجها الأول زكى رؤول الذي قنع من الحياة بنصيب موظف حسابات فى متجر؟ وأين هو من أبيها وأختها ليزا؟ اليهود إذاً مثلهم مثل أصحاب أي دين آخر منهم الذكى ومنهم الطموح ومنهم الصبور ومنهم من لايتمتع ببعض هذه الصفات أو بشئ منها .وذلك التقرير الأولى الذي أطلق به المؤلف الأحكام العامة على اليهود لايخدم الرواية ولاشخصيتها الرئيسية ولا الموضوع والفكرة التى يريد تحقيقها

على الإطلاق . وعندما يصور الكاتب بطلته زينب أو لوسى وهى تبذل جهداً مخلصاً فى التقرب إلى المجتمع المصرى على أنها مسلمة وتفشل فى ذلك فهو يلتمس لها العذر بل يلتمس لإسرائيل نفسها الحق فى الوجود فماذا يفعل اليهودي في أي مكان من العالم ليقترب إلى الشعب الذي نشأ بين أبنائه أكثر مما فعلت زينب ؟ وكيف لا يكون معذوراً بعد فشله حين يطلب وطناً قومياً يلم شتات اليهود؟ الذين لايقبلهم أحد ولا ينسى لهم ماضيهم أحد برغم طموحهم وصبرهم وذكائهم ؟ ففى نظر المجتمع المصري عند إحسان أن اليهودي يبقى دائماً يهودياً

مهما ادعى الإسلام واحترم شعائره وقام بأدائها " ص: ٦٤ وحتى عشـيقها بـدا أكثر جرأة وأقل احتشاماً فى معاشرتها عما كان قبل أن يعرف أنها كـانت ذات يوم يهودية ص:١٣١ ٠

وابنتها الصغرى " لم تكن تستريح إلا في بيت أخيها شـريف و٠٠٠كـانت دائما هناك ٠٠٠ وكأنها تهرب إلى أبيها بعيداً عن أمها٠٠٠ تهرب إلى الجـانب النظيف من حياتها" ص: ١٧٣ ٠

فما العمل إذاً وقد أفقد المؤلف المجتمع المصري كله الأقارب والأباعد مزايا التسامح والوداعة والإنسانية التي يشهد عليها غنى أثرياء اليهود الفـاحش فـى مصر فى تلك الأيام ٠ وربما كانت مشكلة بطلات إحسان عبد القـدوس التـى تحرمها من الصدق والقبول الفنى أنها تمتلئ بحيوية مبالغ فيها وتأتى بالتصرفات المتناقضة فى إفراط زائد لا لشئ إلا لإبهار القـارئ وإثارتـه ولذلـك كـانت الشخصيات الثانوية أكثر صدقا وقبولاً، فياسمين تمثل مأساة ضياعها بوضـوح وصدق أكثر من أمها،إن إحساسها الدائم بالقرف والخوف والسخط وسلبيـتها اليائسة ثم انحرافها الإجرامى فى نهاية المطاف رد فعل طبيعى لتقلبـات أمـها وللظروف المحيطة بها ولعل سلوكها أن يكون رسالة واضحة المغزى يبعث بـها الكاتب إلى قرائه ٠ ومثلها سخط "إيزاك" وعقد "هاجر" ونفور" مدحت ذو الفقـار" ٠ وأما بطلة الرواية المكتوبة عشية رحلة السادات الشهيرة إلى القدس واتفاقيـات "كامب ديفيد" ومعاهدة السلام فإننا لاندرى بالتحديد ماذا تريد أن تقـول : هـل تعترض على الصلح والتطبيع وترى أن اليهود لن يقدموا لنا إلا أمثال إيزاك فـي ساحات القتال أو ياسمين فى ميادين التعاون والاسـتعمار ؟ أن تقـول : لنعـط

فرصة إلى لوسى لكى تصبح زينب حقيقية مع أن الرواية أعطتها فرصة كبيرة ولكن إصرار المؤلف على النظرة الجامدة إلى موضوعه أهدرت تلك الفرصة السانحة · نحن إذاً فى حاجة إلى مطالعة خارجية لموقف إحسان السياسى فى ذلك الوقت ليمكننا تفسير الشفرة التي تحملها الرواية وفك رموزها وإن كان المفترض أن يكون العمل الفنى مكتفياً بذاته فى حمل رسالته وإبلاغها إلى المتلقى· أم هل تريد الرواية (من خلال الإلحاح على عبارة : اليهودي يبقى يهوديا) أن العدو يبقى عدواً فلا معنى للمعاهدات والاتفاقيات؟ ربما · ولكن هذا يبقى تفسيراً بالتوهم وليس تفسيرا مبنياً على إشارات متضمنه تومض بها سطور النص القصصى · ولابد أن نذكر مرةً أخرى أن اليهودى ليس بالضرورة صهيونياً و بالتالى ليس دائماً إسرائيلياً فـ" لوسى" فى شقاوتها القاهرية لاتثير فى ذهن القارئ أي فكرة عن مشكلة المشاكل فى الشرق العربي فى العصر الحديث حول الأرض واللاجئين وبيت المقدس ·· ومجرد أن تخطر ببالها فكرة الموت (فى أرض الميعاد) فى سطر واحد آخر الرواية لايجعلها صهيونية حقيقية، إنها ليست سوى امرأة عادية شغلتها غرائزها فى الصبا واجتذبها بريق المال والأبهة فى الشباب وأضنتها الأمومة فى كهولتها ثم هي فى شيخوختها لم تعد تبتغي غير السلام سلام النفس ، السلام الأخير الذي يرتجيه كل شيخ وحيد · ومن المغالاة أن نحملها إذن أية إشارات سياسية بالرغم من صدورها سنة ١٩٧٧م في تلك الفترة التي شهدت أكبر الانقلابات الدرامية فى حياتنا المعاصرة·

على أي حال فهذا هو عطاء الأديب إحسان عبد القدوس في هذا الموضوع الذي لاشك أنه شغله كاتباً سياسياً ومسئولاً صحفياً وإنسانا عادياً عاش فى قلب الحياة العامة منذ أواخر الثلاثينات واطلع على دخائل الأمور عن كثب ·

فما هو عطاء " فتحى غانم" في الاتجاه نفسه ؟٠

(٥)

وفتحى غانم قريب الشبه من عبد القدوس فى الكثير من المظاهر الحياتية على الأقل فهو مثله مثقف جامعى اشتغل بالصحافة وكتب المقال السياسى فى روزاليوسف وأيضاً فى الهلال وآخر ساعة وغيرها واضطلع بمهمة قيادية فى منظمة الطليعة الاشتراكية فى الستينات كما كتب الرواية الاجتماعية والسياسية ولذلك كان من الطبيعى أن يلتفت إلى قضية الصراع العربي الإسرائيلى ويحاول معالجتها قصصياً باعتبار الإبداع وسيلة للتعرف على الموضوع وأبعاده بطريقة أعمق وأقرب إلى الإحساس بالطبيعة الإنسانية ٠ وسنتناول من أعمال غانم القصصية روايته الصغيرة (أحمد وداود) دون غيرها لأنها تفردت بالاتجاه المباشر نحو الموضوع بخلاف رواية (الأفيال) التي بدا وجود الشخصيات اليهودية فيها ثانويا باهتاً٠

وتقذف عدسة الرواية بنفسها مباشرة منذ السطور الأولى على البؤرة الملتهبة ففى الصفحة الأولى يحدثنا الراوى (الشاب المصرى الذى يشعر بإعياء شديد لايعرف كنهه) عن أحلام عجيبة تطارده باستمرار تؤكد له أن روحاً لشخص ميت انتقلت إلى جسده وأخذت تمارس حياتها في أحلامه وتصور له كيف عاش ومات ذلك الشخص الآخر الذي هو أحمد بن سالم الحداد ، إنه صبى فلسطينى من أهل قرية " د" القريبة من القدس ، تلميذ فى المدرسة الخيرية الإسلامية ، يعيش مع والديه وإخوته بجوار قصر شوكت الأنصاري سيد الأرض التركي وأتباعه الشراكسة ٠ ومختار العجوز عمدة القرية المكلف بجمع الضرائب من

أهلها وتوريدها إلى السلطة الحاكمة فإذا امتنع الفلاحون عن الدفع ألهب شراكسة الأنصاري ظهورهم بالسياط • وفي خضم تلك المعاناة اليومية المعتادة يفاجأ الجميع بالجمال خارجة من قصر الأنصاري محملة بالصناديق الخشبية الكبيرة إيذاناً برحيله فقد باع القصر الكبير ليهودي ألماني يدعى الدكتور " روز ينبرج" ويتحير والد أحمد بين الفرحة بذهاب التركى الطاغية وبين الأسف على رحيله لأنه كانت له عليه دالة وكان يقترض منه أحياناً كلما عجز عن دفع الضريبة أو يلتمس عنده تخفيفها وربما المعافاة منها، فامرأته كانت تحسن تحضير دواء في زيت الزيتون المطبوخ بالأعشاب البرية تعالج به والدة الأنصارى • وهاهو مختار العجوز يهدده إما الدفع أو الحبس ويلمح له بإمكانية المعافاة من الضريبة إذا قبل أن تكون ابنته "سعاد" زوجة العجوز الثالثة • والرجل لايدرى ماذا يفعل فيضطر للجوء لصديقه المقدسى " شالوم " الساعاتي الذي يبشره بصفقة رابحة فصاحب القصر والضيعة الألماني يريد صنع صهاريج كبيرة وسيعطى عليها الكثير وتتوطد العلاقة بين الرجلين ويتبادل ابناهما أحمد وداود المودة والتزاور ولكن الأحداث تبدأ فى لفت انتباه الصبيين بغرابتها • شيئا فشيئاً يصبح الحى اليهودي من القدس خطراً على أحمد وينصح شالوم ابنه وصديقه أن يلعبا فى فناء البيت ولايخرجا إلى الطريق فقد بدأت المظاهرات من العرب ومن اليهود ضد بعضهما وضد السلطة البريطانية تملأ الشوارع، وبدأت الرصاصات الطائشة تعرف طريقها إلى الصدور • وفى قرية "د" أيضاً تتغير الأحوال فيمنع أحمد وداود من اللعب بالقرب من ضيعة الأنصارى التى أصبحت محاطة بالأسلاك الشائكة ويتقاطر عليها شباب أجانب يهود مهاجرون من أوروبا فراراً من النازى ومعسكرات الاعتقال والمحارق ولكنهم لايكتفون بزراعة الأرض بل يتدربون على حمل السلاح وتخرج من القصر امرأة روسية بدينة حمراء الوجه

تبحث عن فتيات الأسر اليهودية الشرقية تريد - كما تقول - أن تعلمهن ألاّ يصبحن حريماً وجوارى • ولكن اليهود الشرقيين يستنكرون مدرسة الروسية البدينة للبنات اليهوديات فهى تطبعهن على العادات الإباحية الغريبة غير أن الأمر يتجاوز ذلك • وهذه سارة أخت داود صديق أحمد صبية فى مثل سنه لذلك لفتته حيويتها وقوة شخصيتها فأحبها كما أحب أمها وقارن فى خياله بينها وبين أخته سعاد المسكينة التى انطفأ نور شبابها حين أجبرت على الزواج من مختار العجوز كما قارن بين (فورتينية) أم داود وسارة وبين أمه العائشة فى الهم والنكد طوال الليل والنهار • إن القدر الضئيل من التعليم الذي أحرزته فورتينيه وهامش الحرية على تواضعه وبعض الوعى القومى والإحساس بالانتماء والهدف أكسبت وجهها بلا شك وضاءة جعلت أحمد يتمنى أن يراها على وجه أمه البائسة التى تحملت عن أبيه حمولة القهر الثقيلة الملقاه على عاتقه من قبل الأنصارى والعجوز وأسيادهما والتى لا يجد من ينقلها إليه غير امرأته وأبنائه • لذلك نجد داود يفهم عن أبيه بمجرد لفتة الوجه أو إشارة العين أسرع من أحمد ويستطيع أيضا أن يعترض ويستمع إليه كما تستطيع فورتينية وسارة دون سعاد وحسان ومروان وأحمد الذين يصبح قول أبيهم بالنسبة لهم فرمانا سلطانياً لا يرد ولايعقب عليه •

ولاننسى فى هذه الفترة ثلاثينات القرن العشرين أن سلطة الانتداب كانت تكيل لليهود بأوسع وألين مما تكيل به للعرب • ومن قبلها بزمان طويل كان الباب العالى يوزع الامتيازات بسخاء على القنصليات الأجنبية بما ليس فى صالح أغلبية السكان • تأمل كيف تقطر الرواية حركة التاريخ وقوانين الاجتماع وتكثفها وتلخصها لنا فى هذه الأحداث والعلاقات البسيطة •

وعلى أي حال فقد عشق أحمد سارة وهام بها وبادلته هيامه بعض الوقت غير أن المؤلف لم يضيع الصفحات فى امتاعنا بقصة حب رومانسية بل جعل من هذا الغرام مرآة صافية ينعكس على صفحتها بكل وضوح تطور الأحداث والأفكار والمواقف والصراع المحتدم بين العرب واليهود .

فى البداية استغل أحمد هامش الحرية المتاح لسارة فلم يبذل جهداً كبيراً فى محاولات الاتصال النفسي والجسدى بها ، كانت الفتاة فى تلك الفترة فى بداية التعرف على ذاتها كأنثى ولم تكن بدأت التعرف على ذاتها كعنصر فى تحقيق المشروع القومي الصهيوني بعد ولذلك اتسمت العلاقة بينها فى تلك المرحلة المبكرة بالحرارة والصفاء، لقد كان أحمد فى ذلك الوقت أقرب إلى سارة وداود من " ديبوراه" ابنة الدكتور الألمانى التى تتكلم لغة غريبة على البيانو وتغنى غناءً أوبرالياً يستثير السخرية والضحك من الصبيان الثلاثة . ثم جاءت السيدة الروسية واقتحمت حياة سارة وعقلها وأصابتها بالحيرة والتمزق والصراع الداخلى لبعض الوقت . ولما التحقت بمدرستها أو معسكرها بتعبير أدق ضاقت بالحياة الخشنة والمحاضرات المصدعة للرؤوس : البنات كيف يشتغلن بالفأس ويعملن فى الفلاحة . واشتركت سارة فى إضراب البنات وصراخهن طوال الليل حتى سمحت لهن "راشيل" الروسية فى الصباح بالعودة إلى بيوتهن . فرح بعودتها أهلها كما فرح بقية اليهود الشرقيين بعودة بناتهن إليهن غير أن "سارة" أغلقت الباب على نفسها وأمضت اليوم كله تبكى فى صمت وآخر النهار أعلنت أنها سترجع إلى "راشيل" . وفى هذه المرحلة سرقت فرصة أو فرصتين لتلتقى بأحمد فقريته على مشارف (الكيبودز) لكن سمعة الحب كانت تنطفئ لتحل

محلها نيران التعصب والكراهية بفعل حكايات راشيل عن الهولوكوست وتصويرها لعملهن البطولى فى بناء دولة إسرائيل ٠

فى هذه الأثناء ظل أحمد على حاله ، تتغير سارة ويتطور تفكيرها وموقفها بسرعة لاهثة وأحمد مايزال مشغولاً بغرامه، يقترح على داود أن يزوجه من أخته ليريحهم منها كما يقول ! ويقلق على فحولته ويفرح حين يحس بالاطئمنان عليها ، ولاينتبه إلا بعد أن يقابل سارة بالصدفة فى زيها العسكرى وهى فى نوبة حراسة توجه فوهة الرشاش إلى صدره ضاحكة وتقول له بحزم : ولكن احذر أن تقترب من هذه المنطقة، المنطقة التى كانوا يتسايفون فيها أطفالاً من سنوات قليلة والتى شهدت الفصول الأولى من غرامهما٠ بعد هذا اللقاء الغريب ينتبه أحمد إلى جماعة " عبد القادر الحسينى " ويلتحق بها ويتدرب على صنع القنابل اليدوية واستعمالها ويكلف بمهمة نسف الكيبودز بما أنه يعرفه جيداً ويعد الخطة لتنفيذ مهمته وقبل أن يشرع فى أدائها يكون شباب أرجون وشتيرن وها جناه قد خرجوا من الكيبودز متجهين نحو قرية " د " لإزالتها من على وجه الأرض لأن موضعها فى الخارطة يجب أن يكون الطريق من أورشليم إلى تل أبيب وفى الطريق إلى القرية يلتقى أحمد وسارة بعد أن تكون قد أنجزت مع عصابتها مهمة المذبحة البشعة بجنونية غريبة وتعطش إلى الدماء والعبث بالجثث ، لم يكن يتخيل أحد أن تتحول إليه الفتاة الشرقية الرقيقة ٠

وعندما يصيب الرصاص صدر أحمد يكون الحلم الكابوسى قد بلغ نهايته ليترك الشاب المصرى فى حيرة من أمره لم يعد يعرف إن كان هو الفتى القاهري العائش آخر الثمانينات زمن الحكى أم أن جسده -والرمز واضح طبعاً -

أصبح مسكناً لروح الشاب الفلسطينى الذى استشهد فى الأربعينات والــذى يلــح الآن على أن يفهم لماذا جرت كل هذه الأحداث ؟ إنهم يسموننى شهيداً ولكننــى أسأل لماذا كانت نهايتى على أرضى على هذا النحو ٠٠٠ الويل لى أن أمــوت قبل أن أفهم ٠٠سأكــــون فى عداد المغفلين قبل أن أكون فى عداد الشــهداء ص :١٣٨ ٠

(٦)

فى هذه القصة الواقعية التى تجرى أحداثها بين قوسين من الخيال (الفانتازيا) يؤكدان وحدة الجرح والمصير ٠ تتميز سارة منذ اللقاءات الأولى بوضوح الرؤية وقوة العزيمة إنها لاتتصور الزواج بعشيقها تقول : "لم أفكر أبداً فى الزواج مــن مسلم ، لست متدينة كما تتصور ولكننى هكذا ٠٠ أريد أن أشعر بالاطمئنــان ٠٠ لن أطمئن أبداً معك" ص:٥٣ برغم حومة العشق وحداثة السن وكونها لم تتصــل بعد بمدرسة راشيل تدرك أن أحمد يقف فى الجانب الخاسر، الجانب الضعيــف ولذلك لن تشعر بالاطمئنان أبداً معه ٠ مع أن مشكلة الأولاد لاتقلقها " الأم هــى التى لاشك فيها، وهى التى تضع الولد٠ وهى التى تعطيه دينه كما أعطته حياتــه ٠٠٠ الآن أقول لك إنى أتزوجك لأنك تظن أنك الأب الذى يملك كـــل شــئ ، يملك الولد واسمه ودينه أليس هذا هو ما تفكر فيه ؟٠٠٠ الولد لـــى ٠٠ لــى وحدى وهو يهودى كما أنا يهودية وسيظل يهودياً كما أنا يهودية " ص:٥٤ ٠

إنها ترى في أحمد أيضا الجانب المقهور المستذل المكبوت سياسياً الذى يفرغ قهره وذله في امرأته وأبنائه٠

وبمضى الوقت أخذت سارة تتحرر من حومة العاطفة الشخصية وبدأت "تريد أن تسيطر على مشاعر غامضة قد انتابتها ، وترى فى راشيل امرأة ليست مثـــل نساء بلدها ، لاتعرف الخضوع ولاتخشى الرجال ، ليست كومة من اللحم والشحم فى انتظار رجل ينهشها أو يلفظها كما يشاء " ص: ٦٣ على أن القصة لاتصـــبر على إطلاع القارئ على تفاصيل التطور التدريجي فى شخصية سارة في مراحله الدقيقة فنحن لا نراها إلا من منظور أحمد المحدود الذي يصدمه تحولـــــها إلـــى الصهيونية ص:٦٧ وحديثها عن اليهود كأقلية مضطهدة فى حاجة إلى أن تعتمــد على نفسها في حماية نفسها ثم تصدمه ص:٨٥ بتسليم جسمها له كرشوة تشتريه بها وتشترى ولاءه وخيانته لأهله ٠

وفي المقابل يظهر الفتى العربي ضحية للقهر والجـــهل والتغييـــب المتعمــد للوعى من جهة السلطة ٠ وحين عرف مـــن شـــالوم صديـــق أبيـــه أن شـــبان المستوطنة هم الذين أفسدوا مياه البركة التى ترتوى منها قرية " د " ويأتى إليـــها اليهود العرب ليتطهروا فيها وألصقوا جريمة إفسادها بالشراكسة ليوقعوا بينـــــهم وبين أهل القرية ويجدوا فرصة للتخلص من الشراكسة كعمليـــــة مبدئيـــة قبـــل التخلص النهائى من المواطنين العرب ، حين عرف أحمد تلك الحقيقة لم يجـــرؤ على إعلانها وامتثل لأمر أبيه بالسكوت : " لماذا لانعلن يا أبى ما ســـمعته مـــن شالوم إن الشبان الأغراب هم الذين دبروا الجريمة ؟ لماذا لاتقول لهم الحقيقة؟ ما الذى تخشاه؟ مصالحك مع الدكتور" زوز يببرج" وعلاقاتك بمختار العجوز حتمت عليك أن تصمت ؟ لا تريد أن تتورط فى كلمة تضايقهم ٠٠ تريد أن تستمر فـــى عقد الصفقات مثل تلك العملية التى ستبدأها في المعسكر الإنجليزي " ص : ٧٤، ٧٥ ويستمر أحمد فى العمل مع أبيه فى بناء الصهاريج للدكتـــور زوز ينـــبرج

والمعسكر الإنجليزي ويستمر العرب على نظرتهم القاصرة ووعيهم المغيّـــب ٠ ومختار العجوز يذهب إلى القدس ليحضر فى فندق داود اجتماعاً يعقده أعيـــان الفلسطينيين ووجهاؤهم مع المندوب البريطانى ليطمئنوا على أن كل شئ على ما يرام ،والشبان الأغراب يتكاثرون ويقتلون الشراكسة فى مقدمة لها ما وراؤها ، وحين يستفيق فتانا العربي تكون إفاقته متأخرة بعد أن تكـــون " كـــل النـــهايات تجمعت وفسدت ٠ كما فسد الماء الطاهر في تلك البركـــة بجثـــة جمـــل قتلـــوه وألصقوا التهم بالشراكسة ٠٠ وتعـــــمدنا أن نسكت ونحن نعرف الحقيقـــــة " ص : ٧٦ ٠

وليس أحمد هو الشخصية الوحيدة التى تقف على طرف النقيض مع سارة بل تمتلئ الرواية بعدة شخصيات متقابلة معها ومن أسرتها أيضـــا تقـــف اليهوديـــة السمراء الشابة وحدها تقريبا على قمة التنـــاقض الحـــاد مـــع الواقـــع العربـــي المعاصر: ولذلك يسقط شالوم مريضا وتصاب فورتينيه بالجنون من جراء فـــرار ابنتها مدرسة راشيـــل أو عصابتها الإرهابية ، كما ستصبح بعد قليل ٠ وتنتظـــر شقيقها داود والخال يوسف مفاجآت انقلابية فالأول يسافر إلى فرنسا فرارا مـــن فضيحة تمرد الأخت على أبويها حيث تنتظره معسكرات إعدام اليهود النازيـــة ، مع أن بعض المؤرخين مثل جارودى ، وديفيد وندلر الإنجليزي يتشككون فـــى حقيقة هذه المعسكرات والمحارق وغرف الغاز التى اتكأت عليها الصهيونية في حشد القبول العالمي لإنشاء الدولة العبرية ٠ والمفارقة المدهشة التى كتبت لـــداود النجاة من مجازر الألمان ادعاؤه أنه عربي فلسطينى ص :٩٨ الذى جعل ضباط المعتقل يتحيرون في يهوديته واستحقاقه للقتل ويرجع داود إلى فلســـطين ليجـــد نفسه منساقا مثل خاله للانضمام إلى الجماعات الصهيونية ، لقد فقد الخال بناتـــه

الثلاث ، اختطفهن راشيل وضيق عليه المتعصبون الوافدون حديثا من أوروبا حتى أجبروه أن يصبح عضوا نشطا فى عصابة ليحى شثيرن" • وما يريد الأستاذ غانم قوله واضح بالطبع وهو أن اليهود الشرقيين ظلوا يعيشون كالمسيحيين العرب فى دعة وسلام وتوافق تام مع الأكثرية المسلمة حتى هبت على الأرض المباركة رياح الحقد والكراهية والتعصب بقدوم دعاة الصهيونية من الأوروبيين لتحقيق أهداف استعمارية خالصة لاصلة لها بالدين على الإطلاق فأي دين يقبل مجزرة قرية " د " وأشباهها؟ إن هذه المجزرة لا يستطيع تصورها أو ارتكابها إلا أمثال الذين ارتكبوا جرائم النازية أو الذين اصطلوا بنارها وخرجوا من أفرانها بشرا خلوا من أية صفة إنسانية•

(٧)

وبعد ، فهل من الممكن الموازنة بين العملين الأدبيين ونحن لم نقم بتحليل شامل لمختلف عناصرهما الفنية؟ ربما صح ذلك بخصوص الشخصيات التى ألقينا عليها الضوء فى الروايتين على الأقل لاسيما ونحن نجد بينهما أوجه اتفاق لها اعتبارها فالمرأة اليهودية الشرقية (لوسى وسارة) عند الكاتبين تتمتع بحيوية وشخصية يفتقر إليها المقابل العربى (أحمد وشوكت) وعلى حد تعبير عبد القدوس نوع من الذكاء والطموح والصبر فى السعى وراء الهدف وتتميز بطلة فتحي غانم بوضوح الرؤية والانتماء الذي جرها إلى ارتكاب أبشع الجرائم الإنسانية باسم النزعة القومية غير أن الرسالة التى تنقلها فتاة غانم إلى القارئ أكثر وضوحا وتعبيرا عن نفسها بمقدار ما كان تطورها داخل القصة وانتقالها من البساطة إلى الإرهاب مبررا ومعقولا وإن أخفي عنا المؤلف بعض تفصيلاته، وأما بطلة عبد القدوس فقد تلعثمت شخصيتها ووقائع حياتها فى

التعبير عن أبعاد القضية المصيرية ووقعت فى التناقض والمبالغة والجمود ٠
وإذا كان لا مفر من التوازن بعد الموازنة فلنقل إن لعبد القدوس فضل الجرأة
والسبق ولغانم فضل الجدية والعمق ٠

* * *

ثورة على الورق

شعر: محمد فتحي نصار

صبنت الكأس عنا أم عمـــــرو
وكان الكأس مجراها اليمينـــــا

"عمـــرو بن كلـــثوم"

ألا هُبِّى بلحنك ٠٠ أطربينـــا
وبالأمل ارفعينا وادفعينـــــــا
ولاتتوقفى لسمـــــاع غـــاو
ولا تأسى على المستســـــلمينا
إلا هبى وهبى ٠٠ لاتبـــالى
وألقى عنك هاتيكِ الدجونـــــا
وهيا حطمى الأسوار ٠٠ هيـــا
وكونى أســـــوة للمؤتسينـــــا
وسيرى نحو آفاق الأمانـــــى
وللأحلام – صادقـــة – خذينـــا
وإلا فاتركى الأيام تمضـــــى
وللماضى المبــــارك أرجعينـــا

****

سئمنا الموت فى هذى الصحارى

وعاف الموت مهوانا المشينـــا

وطال الصمت والأصوات حـــيرى

بداخلنا تحاول أن تكـــــونا

تدق على حوائطنا ·· تتـــادى

لتُسمع عالماً جهماً خؤنـــــا

ولكنا شربنا الصمت كأســـــا

وآثرنا التقوقـــع والكمونـــــا

فغابت شمسنا والليل قـــاس

وليل الخوف ينتزع اليقينــــــا

وغبنا فى متاهــــات تمـادت

وصارت حولنا الدنيا سجــــونا

وعشنا والحيـــاة بلا مــذاق

وعيش الذل يرضى العاجـــزينـا

ومن يرض الحياة بغير لـــون

يعــش أيامه فيها رهينــــــــا

ومن يبغ العلا يبلغ مداهـــــا

ويظفر بالمنـــى والمجـــد حينـــا

ولن تبقى الحياة لعاشقيهـــــا

ويبقى الذكر والذكرى قرونـــا

فهبى يا رياح البعث هـــبى

ولاتخشى وعيـــــد الموعدينا

وثورى وانفضى عنك المـــآسى

وهيا فجرى الآتـــى عيونـــا

بها تتعلم الدنيا علومـــــــا

ستحنى فى جلالتها الجبينـــــا

شموس لو أطل لها شعـــــاع

لهتَّك زيف كل المدعينــــــــا

أعيدى قصــــة الأمس٠٠ اقرئيها

وأيام الرجال الراشــــــدينـــا

وقصى ألسنا بالإفـــك تســرى

ولا تبقى جحور المرجفيـــــــنا

ولاتستسلمى للزيف يطغـــــى

فيسرق منك تاريخــــا ودينـــا

فقد صار الجميـــع بلا دليـــل

وفى الماضى دليـــل المخلصينـــا

****

ومالى لا أحـن لطيف مـــاض

أناجى منه ما قد مات فينــــا

وأستحيى العظام وقد تفانــــت

وحلت فى الثرى لحداً مكينــا

لتحكى ما رأت بلسان صــــدق

وتُسمع من صداهــا العالمينا ؟!

وماذا لو رجعت على خيالـــــى

لأ سترضى جدودى الأولينــا؟!

وأبصر هاهنا رايات مجـــــد

ترفرف فوق هـــام الخالدينا!

وأسمع ها هنا بشرى سيـــوف

يداوى حدها الرأس الأفينــا !

تضئ الأرض من شرق وغــرب

وتخضع فى ذراهــا المارقينا!

وتنصر كل ذى أمـــل هضـيم

وتبنى للعلا الركن الركينـــا!

٠٠أما كنا حماة الحق يومـــاً

وكنا عن حماه ذائدينـــا ؟!!

رضينا أن نكون له جنـــــوداً

نسير بأمره مهما ابتلينـــــــــا

وننشر صوتـــــه فى كل ركـــن

ولو كنا له ثمنا ٠٠ رضينـــــا !!

وسرنا فى مسالكـــــه لنبنـــى

على قبب السماء مؤذنينـــــــا

ونغرس فى تراب الأرض غرسا

سيثمـــر للزمان مجـــاهدينـــــا

أما كنا غداة الروع ريحـــــاً

تفتـــح عنـــد هبتهـــا الحصونـــا

وتسحـــق كل عـــات مستبـــد

يصول بقـــوة المستضعَفينـــــــا

أذان من شفاه الغـــيب دوى

ليهـــدم كل مـــلك الظـــالمينـــا

وينصر جنـــده ٠٠ وعد عليه٠٠

وتروى راحتاه اللاهثينـــــــا؟!!!

****

وآه لو يدوم الحــــال ٠٠ آه

وآهٍ من تصـــاريف الســـــنينا٠٠

خُدعنا عن أمانينـــــــا الغوالـــى

وبين تقلب الدنيـــــــا نسينـــــا ٠٠

٠٠ نسينا النور ، والنور اكتشاف

لآيات تكون لنا الوكونـــــــــــــا !!

٠٠ نسينا الحق ، والحق انتصـــار

على جند الهزيمـــــــــة أجمعينـــا !!

٠٠ نسينا العـــدل، والعدل انطلاق

إلى الفردوس ،مأوى العادلينـــــا!!

٠٠ نسينا الخير، والخـــير اختراق

لأغلال المطـــــــامع تحتوينـــا !!

٠٠ نسينا الحب ،والحب اشتيقـــاق

لوجه الحق يملأنـــــا حنينـــــا!!

٠٠ نسينا كل شئ ثـــم عدنـــــا

نبيع تراثنا بيعـــــاً غبينـــــا !!

٠٠ دفنا صولجان المـــــلك حيـــا

و بتنا نـــدب الكنز الدفينـــــــا!!

فأفلتت الحقيقـــــة من يدينــــــا

وما كنا لعهـــد حـــــافظينـــــا!

أنبكى– يا إلهـى - ما أضعنـــــــا

ولـــــم نسهر عليه حارسينـــــــا؟!

أنبكى أعصراً كانت فهانـــــت

وألقتنا ، وكنا الســــــابقينـــــا؟!

أنبكى عزنا يهــــوِى ويهــــوِى

ونحن له البناة الهــــادمـــــونـــا؟!

أنبكى تاج أندلـــس صريعـــاً

ذبحناه وعـــــدنا نادمينـــــــا؟!

وأسلمنـــــاه مرتخصـــــا وسهـــلا

ولم نرخص لعزتـــــه الثمينـــا!!

وألقينا فى جـــــــب ظلوم

وعدنا ـ كاذبين ـ إلى أبينـــــا !!

أنبكى القدس تنهشهـــا المنايــــــا

ونصرخ خلفها أن :عائدونـــــا؟!

ولم نثبت لها أنا لدينــــــــــا

بقيات الجدود الفاتحينـــــــــا!!

عصابات اللصـــــوص تقاسموها

وراحوا يسخرون ويســـخرنا !!

ويغتصبـــون أبكـار الأراضى

ومن كل القواعـد يضحكونـا !!

وفى لبنان مدوا ألف نـــاب

وباتوا بالجريمـــة منتشينـــا!!

وفرسان الكـــلام على المقاهـى

بأوهام الزعامـــة يسكـــرونـا

وأحرار البلاد مقيـــــدونـا

وعن مرعى الخيانـــة مبعدونـا

وأطفال البلاد هـــم اليتـــامى

وعن آبائهـــم يتســـاءلونـا

وإن سألوا فويـل ثم ويـل

.. بلا ذنب جنوه يدفنونـــــا!!

تُدق عظامهم ظلمـــا وكيدا

وفى ظلم الحضارة يخنقونـــا!!

ومن قيد المظالم والمـــآسى

ينادون العوالم : أدركونــــــا

يضيع الصوت فى الدنيا هباءً

فقادة أمنـــنا لا يسمعونــــا

أعاجيبٌ تشيب لها النواصى

وتنفجر القلـــوب لها شئونـــا!!!

****

وفى زمن التقدم والتـــداعى

ومرسى العلم لما أن شقينــــــا

أناس يُقتلون بغـــير ذنــــب

ويظفر بالحياة القاتلـــــونـــا!!!!

وأرض تستباح بغـــير حـــق

ويمرح فى رباها المعتــــدونـــا!!

وأزهار تبيت بغير مــــأوى

سوى الآلام تستعدى المنونـــــا!

وأعراض تمــــزق فى جنون

ومن ذا سوف يحتمل الجنونا ؟!!!

وحقد يحرق الآمـــال فينـــا

و يقتلع البراعـــم والغصونــــا!!

وكفر بالعواطـــف فى تحـــد

٠٠جروح لاترى صدراً حنونـــــا

مآس تترك الولدان شيبــــا

وتترك كل ذى حـــس حزينـــــا

سرايبفو !! وخانتنا القوافــى

وحق لأهلها أن يلعنـــــــونـــــا

فذى أصواتهم تــدوى ، وتدوى

٠٠ ينادى المسلمــون المسلمينــا !

وكل غارق والطـــــوق واه

ويفتن بعضنـــا بعضا فتونـــا!!

وفى الآذان - يا إخوان - وقــر

فلسنا - ويحكم - من ينجـــدونـــا

ولسنا من يعين ذوى حقـــوق

ولسنا من يغيث الصارخينــــــا

ولسنا من "بنى أســـد وحـــرب"

ولسنا فى الورى إلا ظنونـــــا !!

حيينا رغــم كثرتنـــا غثـــاء

فهل تدرى لنا الغـــبراء دونا ؟!!

****

هموم يهرم "الهرمــــانِ" منهــا

وتقطع من" أبى الهــول" الوتينــا!!

ويصبح ذو الحجا حيران فيهـــا

ويُذهب هــولها العقل الرزينــا !!

وقفت أقلب الألفاظ جُهـــــدى

فإذ بالقول يرمقنى طعينــــــا!!

تراودنى المعانـــى وهى ظمـأى

تسيل مرارة وتـــذوب لينــــا

تَزَاحم فى ضميرى ٠٠ فى يراعى

وأسمع من تزاحمها أنينـــــا!!

ولكن الضمــير يموت صــبرا

ويملأ صدرى الخــاوى شجونا!!

وأهتف باليراع فلا يلبـــــى

ويدفن رأسه خجـــلا وهونـــا!!

أُذَكّره بأمجاد تولـــــــت

وكنت عرفتــه فيهــا قرينــا !!

أهز لديه أوتــــاراً رقاقـــاً

تراقص فى بنان اللاعبينـــا !!

فتذهب فى يدى أنقاضَ حلـــم

وكانت أمسِ تملأنى لحونــا!!

أحطمــه وأقذفــه بعيـــــداً

وقد كان المرافق والمعينـــا!!

وأجلس استعيـــد صدى خطاه

وخطو الدمـــع يسكبنى سخينـــا

ألم تك يا رفيق العمـــر ردئى

إذا أضحت لى الأيـــام جونـــا؟!

ألم تستخلص الآهاتِ منـــى

وقد كانت بمرقانا حزونـــا ؟!

ألم تحمل همـــوم الفكر عنـــى

لتودعها- من الورق - البطونا ؟!

ألم تسهر معـــى ليلاً وليـــلاً

نحلق بالمعانـــى كيف شينـــا؟!

أيا قلماً غـدا ألماً وسهـــداً

لقد أثكلت قلبى واليمينـــا

رجعت إلى المعانى الهيم وحدى

وما أعددت للســـفر السفينـــا

وقد كانت تزاحم فى تلـــظ

وتضرب فى ضلوعى كى تبينـــا

ولما عدت منكســـراً إليهـــا

رأيت خيولها ندت حرونـــا!!

ولم أجد الوجود سوى سراب

يخادعنا الغـداة ويزدرينـــا

ويهرب حين يظما الجهد منا

ونَبقى بالشقـــاء مُلَبَّسينـــا !!

سراب نملأ الأقـــداح منـه

ونشربها ونبقى ظامئينــــا

ونمعن فى الدعـــاء بغير جدوى

فما زال السراب هنا ضنينـــا!!

ونعلم أنه لاشئ، لكــــن

حياة الوهم ترضى المعدمينـا !!

****

رويدك ياملاك الشعر ٠٠ مهلا

وهبنى بعد ثورتك السكونـــا

فقـــد قطعتنى فى كل بيت

وقرحت الحنايــا والجفونـــا

وفجرت البراكين اضطرامــاً

ولم تترك بها سراً مصونــــا

وثــرت على كيان ذاب ضعفا

فكان مثابــة للشامتينــــا!!

تدفق ‥ كيف؟!‥ لاأدرى، وإنى

لأعجب إذ غدوت لك الخدينــا !!

وإذ صيرتنى - بالقهر - نايــاً

تدافع منه ناريا هتـــــونـــا!!

غدا عمرى تفاعيــــلاً ونجــوى

وهمت على حدودهما فنونـــــا

فأحيانا بهمس الحب أســـــرى

وأحيانا أهب أذىً لعينــــــا

وأحيانا مديحـــاً مستجـــاداً

وأحيانا هجاءً أو مجونــــــا

وأحمل فى فضائى ألف قلـــب

وكل يحمل المعنى الجنينــــا

وأفنى فى سعار الفن لكـــــن

لأخرج مارداً حراً مبينـــــا

وأنبت من ثرى قبرى غصونا

ملاييـــنا تسر الناظـــرينـــا

محمد فتحى نصار

ربيع الأول ١٤١٤هـ

أغسطس ١٩٩٣م

فهرس تراجم كتاب الأغانى

د . يوسف محمد فتحى عبدالوهاب

يعد كتاب الأغانى من المصادر الأدبية الكبرى فى تراثنا العربى ، جمع فيه مؤلفه كثيراً من التراجم والأشعار والأخبار ، مع ذكر طُرَفٍ من قضايا اللغة والنقد والفقه والتفسير ... إلى غير ذلك من سير العلماء والخلفاء والأمراء، كماضمنه- فى أثناء عرضه لتلك الأمور - بعض صور المجون والابتذال والخمريات ، مما تعافها النفوس السوية والفطر السليمة ، ولكن أمثال تلك الصور لاتشكل فى مجموعها إلا نسبة ضئيلة إذا ما قورنت بما يحتويه هذا الكتاب الجليل من فوائد وعطاءات .

ويحلو لبعض الدارسين التركيز على جوانب المجون والابتذال فى مرويات هذا الكتاب ، ونسى هؤلاء الدارسون ما يشتمل عليه هذا الكتاب من حسنات ، تغطى على كثير من تلك المعايب والهَنَات ، التى لايكاد يخلو منها عمل من أعمال الإنسان ، مهما بالغ الإنسان فى التحرى والتدقيق ، ونحن لاننكر أن كثيراً من مرويات هذا الكتاب لايمكن الاعتماد عليها فى أمور العقيدة وأحكام الشريعة ... وغير ذلك مما يتصل بالعلوم التى يستمد منها المسلمون الفضائل والأحكام .

بل إن تاريخ الشعراء - أيضاً - يحتاج إلى كثير من التدقيق والتمحيص والتحرى ، وعدم تصديق كل ما يقال فى كتاب الأغانى أو غيره من مصادر الأدب العربى ، لأنه لابد من جمع كل ما يقال فى الشاعر موضوع الدراسة ، ثم مقارنة هذه الأقوال لمعرفة الصحيح منها بعد التحليل والدراسة الدقيقة .

للدارس أن يقوم بكل ذلك وأكثر من ذلك ، ولكن الشئ الـــذى لايمكـــن أن نعتد به هو اتهام مرويــــــات كتب الأدب فى مجموعها ، وعدم اعتقاد كل مـــا يقال فيها ، لأن هذه الكتب هى التى نعرف من خـــــــلالها طرائــق تــذوق الأساليـــــب الفنية، ومظاهر تطور مدلــــــولات الألفــــاظ فــى ســياقاتها التعبـــــيرية ، وهذا يساعد - من غـــــير شك - على استنــــــباط الأحكام من القرآن الكريم ، والسنة النبوية المطهرة ، وهما أصـــل التشــريع ، ومنبــع الحكمة والبيان •

فإذا كنا نعلِّم شبــــــاب هذه الأمة كتب تراثـــــــنا العربى الخالد ، فـــلا بد أن ننقيها مما بها من صـــــور المجون والابتـــذال ، ونأتى لهم من مـــادة هذه الكتـــــب بما يحث على الفضـــائل ومكارم الأخلاق ؛ ليرتضع أبنــاء هذه الأمة تلك الفضــــــائل منذ نعومة أظفـــــارهم ، فإذا ما شـــب عودهـــم ، وقويت فطنــــــــهم ، وأصبحت لديهـــم القـــدرة على التميـــيز والدراســة والتقييـــــم تركنا لهم الفرصة للتعمق فى كتب التراث ، والتعامل معها كما هى بعيداً عن أى تدخل أو توجيه ، لأنهم ما داموا متسلحين بالفضيلة والعلم والديــن فإنهم سيأخذون مايفيدهم ، ويبتعدون كل البعد عما يضرهم ، ويحول بينهم وبيــن بلوغ أعلى المنازل والدرجات •

ـ مؤلفه:

مؤلف هذا الكـــــتاب ، هو : على بن الحسين بن محـــمد بن أحمد بـــن الهيـــــثم بن عبد الرحمن بن مـــــروان بن عــــبد الله بن مـــــروان ابن محمــــد بن مـــــروان بن الحـــكم الأموى ، المعروف بأبى الفرج

الأصفهانى٠(١)

ولد بأصبهان سنة ٢٨٤هـ فى خلافة المعتضد بالله ، وهى السنة التى مات فيها البحترى الشاعر ، ونشأ ببغداد واستوطن بها ، وروى عن عالَمٍ كثير يطول تعدادهم ، وله شعر حسن ، بالإضافة إلى كتبه الكثيرة التى سيأتى بيانها، وقد توفى سنة ٣٥٦هـ على أرجح الآراء ، ودفن فى بغداد ٠

ـ من أبرز مؤلفاته المطبوعة :

١-أدب الغرباء ، تحقيق : صلاح الدين المنجد ، دار الكتاب الجديد ، بيروت الطبعة الأولى ١٩٧٢م٠

٢- الإماء الشواعر ، تحقيق : جليل العطية ، دار النضال بيروت ١٤٠٤هـ = ١٩٨٤م ، كما طبع بتحقيق : نورى حمودى القيسى ، ويونس أحمد السامرائى ، عالم الكتب ومكتبة النهضة العربية الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ = ١٩٨٤م٠

٣- القيان ، جمع وتحقيق : جليل العطية ، المملكة المتحدة ، لندن ، رياض الريس للكتب والنشر ١٩٨٩م٠

---

(١)انظر ترجمته فى : معجم الأدباء:١٣/٩٤-١٣٦، ووفيات الأعيان :٣/٣٠٧- ٣٠٩، والفهرست :١٦٦-١٦٧ ، والكامل لابن الأثير :٨/٥٨١-٥٨٢ ، والمنتظم فى تاريخ الملوك والأمم : ٧/٤٠-٤١، ويتيمة الدهر :٣/١١٤-١١٩، وتاريخ بغداد : ١١/٣٩٨ -٤٠٠، ولسان الميزان:٤/٢٢١، وشذرات الذهب :٣/١٩-٢٠، وروضات الجنات:١/٤٥٧-٤٥٨، وميزان الاعتدال:٣/١٢٣، وسير أعلام النبلاء:١٦/٢٠١-٢٠٣، والبداية والنهاية:١١/٢٦٣، والأعلام:٤/٢٧٨، وتاريخ الأدب العربى (كارل بروكلمان) :٣/٦٨-٧١ ٠

٤- مقاتل الطالبيين ، طبع طبعة حجرية فى طهران سنة ١٣٠٧هـ، وطبع فى المطبعة الحيدرية فى النجف سنة ١٣٥٣هـ = ١٩٣٤م ، وطبع بتحقيق : السيد أحمد صقر ، دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة ١٩٤٩م ، وطبع بعناية وتقديم : كاظم المظفر ، منشورات المكتبة الحيدرية ومطبعتها ، النجف ١٣٨٥هـ = ١٩٦٥م.

٥-الأغانى:

(أ) طبعة بولاق (فى:٢٠ جزءاً) سنة ١٢٨٥هـ = ١٨٦٨م، والجزء الحادى والعشرون حرره : رودولف برونو ، وفيه تراجم وأخبار لم تذكر فى طبعة بولاق ، ونشره فى ليدن سنة ١٨٨٨م ، ونشر : اغناطيوس جويدى مع آخرين، "جداول كتاب الأغانى الكبير" ، وهو فهارس هجائية للطبعة السابقة، بالعربية والفرنسية ليدن ١٩٠٠م .

(ب) طبعة الحاج : محمد ساسى المغربى (فى:٢١ جزءاً) طبعها على نفقته الخاصة ، بتصحيح العلامة الشنقيطى ، الذى كمل الكتاب بالجزء الحادى والعشرين ، ثم ذيله بالفهارس التى صنعها : اغناطيوس جويدى ، فى أربعة أجزاء أخرى ، وطبع الكتاب فى مطبعة التقدم بالقاهرة سنة ١٣٢٣هـ=١٩٠٥م.

(ج) طبعة دار الشعب (فى :٢٩ جزءاً) مطبعة الشعب القاهرة ١٩٦٣م - ١٩٧٨م.

(د) طبعة دار الثقافة (فى :٢٥ جزءاً) الأجزاء :١- ١٤ بإشراف : عبدالله العلايلى ، وموسى سليمان ، وأحمد أبو سعد ، والأجزاء : ١٥-٢٣ بتحقيق : عبدالستار أحمد فراج ، والجزآن : ٢٤ -٢٥ فهارس أعدها : عبد الستار أحمد فراج، وقد طبع الكتاب بين عامى ١٩٥٥م - ١٩٦١م .

(هـ) أفضل طبعات الكتاب هى : "طبعة دار الكتب المصرية" ،(فى:٢٤جزءاً) صدر الجزء الأول منها فى سنة ١٩٢٧م وحظيت بعناية كاملة ، فى إعداد الأصول المخطوطة وجلبها من شتى بقاع الأرض ، وكذلك فى صنع الفهارس التحليلية فى نهاية كل جزء من أجزائها ، وقد توقفت الدار عند تمام الجزء السادس عشر ، ثم تولت الهيئة المصرية العامة للكتاب استكمال طبع بقية أجزاء الكتاب بإشراف المحقق الكبير الأستاذ : محمد أبو الفضل إبراهيم - عليه رحمة الله - وأتمت ذلك فى سنة ١٩٧٤م ٠

ثم قامت كثير من دور النشر والهيئات العلمية والثقافية فى مصر وخارجها بتصوير هذه الطبعة للكتاب ، بفهارسها الموجودة فى نهاية أجزائها أو من غير تلك الفهارس ، ولايخفى أن هذه الفهارس الملحقة بأجزاء الكتاب تحتاج إلى جهود كبيرة فى إعادة ترتيبها فى أجزاء مستقلة تلحق بالكتاب ، لأن الباحث إذا أراد التعرف على موضع ترجمة أحد الأعلام فى هذه الطبعة ؛ فإنه يحتاج إلى البحث عن مراده فى جميع الأجزاء ، وفى هذا ما فيه من مشقة على كل طالب علم مَعْنِىٍّ بهذا الكتاب ٠

وقد استعنت بالمولى - سبحانه وتعالى - فى صنع هذا الفهرس لتراجم الأعلام الموجودة فى هذا الكتاب ، وهو وإن كان لايفى بما يجب أن تكون عليه فهارس هذه الطبعة الجيدة للكتاب - كما سبق أن أشرت - إلا أنه يساعد فى الوصول إلى مواضع تراجم الأعلام ، ويمكن التعرف من خلالها على مرادات أخرى كثيرة تقتضيها الظروف والمقامات ٠

وكنت فى ذلك أبدأ باسم العلم فى أغلب الأحيان ، فمثلا إذا كان عنوان

الترجمة فى كتاب الأغانى : " أخبار ابن ميادة ونسبه " ، أكتبه فى ترتيب هـــذا الفهرس هكذا : " ابن ميادة ونسبه - أخبار " ، وإذا كان العنوان فى الكتـــاب : "نسب زهير وأخباره " ، أكتبه هكذا : " زهير [بن أبى سلمى] وأخباره - نسـب" ٠٠٠٠ وإذا اقتضى الأمر أن أذكر العلم فى موضعين ؛ فإننى كنت أفعل ذلـك ، وإن كان من القلة بمكان ٠

أسأل المولى سبحانه وتعالى أن يتقبل هذا العمل خالصا لوجهه ، وأن يوفــق كل من ساعد فى صنعه ونشره ، وأن يجعل ذلك فى ميزان حسناتنا يوم نلقـــاه ، إنه على مايشاء قدير ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ٠

فهرس التراجم

(ب)

(غ)

المجلة الأدبية ذاكرة الأمة

عبد الرحمن عبد العظيم أحمد(*)

كثيرة هى الأدوار التى لعبتها المجلات الأدبية على ساحة الفكر العالمى عامة والعربى خاصة ، والمجلة الأدبية تنشأ " من الحاجة التى تشعر بها حفنة من الأدباء لتجميع القوى حول فكرة جديدة ، أو مفهوم جمالى يريدون أن يقدموه فى كتبهم ، وأن ينتفع به قراؤهم ، فتفتح المجلة الأدبية الطريق إلى هذا الجمهور وتعده وتشكله".

فالمجلة الأدبية لايمكن أن تنشأ من فراغ ولكن لابد أن تنشأ استجابة لحاجة أدبية معينة ، أما الدور الذى تؤديه فى المجال الثقافى فهو دور عظيم هناك شبه اتفاق عليه ، فالمجلة الأدبية فى نظر كاتب سوفيتى " أناتولى سوفرونوف" واحدة من أفضل الوسائل الفعالة لاتحاد الكتاب وخلق جو أدبى فى البلاد ، يجرى على صفحات هذه المجلات جدل أدبى يسمح بتحديد لا المعايير الأدبية والجمالية فحسب بل المعايير الأخلاقية والجمالية أيضا ، وعلى صفحات هذه المجلات تظهر لأول مرة أسماء المؤلفين الشبان والمجلات هى التى تثبت فى الذهن أو يجب أن تثبت فيه حسب القراءة وتحليل ماتمت قراءاته "(١)

وعن إسهام المجلات فى الانتاج الأدبى يقول كاتب آخر : " يتم ذلك أولا عن طريق نشر أحسن الأعمال فى الشعر والنثر والانتاجات الأدبية الأخرى ، ولقد

(*) مدرس مساعد بقسم الأدب والنقد .

(١) مجلة الآداب البيروتية العدد "١٢" ديسمبر ١٩٧٤ ص ١٦ .

أصبح أفضل الانتاجات الادبية فى المجلات قبل أن تطبع فى صورة كتب تقليدا قديما، ولهذا الأمر ثلاث ميزات بالنسبة للأدب وللقارئ والمؤلف فأولا تقدم المجلة للقارئ عملا جديدا فى فترة زمانية أقل ، ثم تتم مناقشة العمل على نطاق واسع بين القراء والدوائر الأدبية فور طبع العمل ، وهذا من شأنه أن يمكن الكاتب من التعرف على الطريقة التى قوبل بها عمله ، ويعالج نقاط الضعف إذا كانت موجودة وذلك قبل أن يصدر العمل نهائيا فى صورة كتاب وأخيرا يتمكن الكاتب من طبع العمل عن طريق المجلة من النظر إلى إنتاجه بطريقة شبه موضوعية"(١)

والمجلات فى نظر الشاعر صلاح عبد الصبور " هي التى تقود التغيير الثقافي وهي التى تبشر بالقيم الجديدة فى مجالات الحياة والأدب والفن ، بل وفى مجال تغيير المجتمع بالعمل السياسى" و"هي العين الناقدة التى تميز بين ما هو جاد وأصيل وما هو منحرف عن القصد أو مترد فى وهدة السوقية والإثارة الباطلة.

وللمجلة فى نظره دور مهم آخر ، ذلك الدور" هو التوفيق بين التيارين الرئيسيين من تيارات التقدم ، وهو تدعيم التراث وتنمية وكشف ما هو جدير بالبقاء والتجدد فيه مع الانفتاح على الحضارة المعاصرة ففى آدب كأد بنا العربي نجد أن فنونا مستحدثة فى بلادنا ، أو بالأحرى مستنبته تحاول أن تشق طريقها مثل فنون المسرح والرواية. وهى فنون لم يعرفها تراثنا العربى،وواجب

(١)المصدر السابق ص٢٠ .

المجلة عندئذ أن تحاول دائما بحاستها النقدية اليقظة توضيح القيم الحقيقية لـــهذه الفنون ، وبسط ملامحها الجمالية والفنية للقارئ مع محاولة تطويع هذه الأشـــكال والقيم "(١)

وإحياء اللغة بعد الجمود الذى اعتراها أثناء عصور الانحطاط الطويلة ، كان عملا مجيدا استطاعت أن تقوم به المجلات الأدبية العربية التى صـــــدرت فـــى النصف الثانى من القرن التاسع عشر فى مصر ولبنان وغيرها٠

وإذا كان هذا وغيره هو الدور الذي قامت به الصحافة الأدبيـــة فـــى ســـبيل الارتقاء بالفكر والأدب ، فما هى التحديات التى تواجهها تلك المجـــلات والتـــى تؤدى فى كثير من الأحيان إلى اختفائها؟٠

يرى الدكتور عز الدين إسماعيل أن المجلة التى لا تستجيب فى مادتها وفى فلسفة تحريرها للهموم والمطالب الروحية والفكرية الآنية ، أو التى تخطئ فـــهم هذه الحاجات الملحة فتنحرف أو تنجرف إلى مشكلات وهمية أو قضايا لم يعـــد لها فى الواقع رصيد من هموم الناس ، والمجلة التى تنغلق دون ما يجرى فـــى العالم ، سواء للجهل به أو لتجاهله ورفضه ، والمجلة التـــى لاتفتــح صدرهـــا للمغامرات والكشوف الجديدة ـ المجلة التى هذا شأنها ، تصبح مهددة من داخلـــها ويؤذن نجمها بالأفول٠ (٢)

---

(١)المصدر السابق ص ٢٣ ٠

(٢) نفس المصدر ص ٣٤ ٠

ويحدد "جورج ديهامل" فى كتابه " دفاع عن الأدب " بعض التحديات التى تواجه المجلات ، وخاصة تلك التى يقوم بإصدارها الأفراد ، فى عدة أمور : "الورق غالى الثمن والطبع غال ، وإقبال الجمهور ضعيف ، وانتباهه تجذبه آلاف من الوسائل وتستلبه فحياة المجلة لا تتطلب مالا فحسب ، بل وكثيرا من الجهد وبخاصة من الإيمان والحب كما تتطلب تجردا تاما عن الحرص على المنفعة المادية. (١)

وهذا المعنى يؤكد عليه الدكتور عز الدين إسماعيل حيث يقول : " إن المجلة حقا سلعة فى السوق " تباع وتشترى ، ولكن ليس واجبها - بخاصة المجلة الفكرية والأدبية - أن تحقق ربحا ماديا مباشرا ، يمكن إحصاؤه بالأرقام فالكسب الذي تحققه مثل هذه المجلة كسب معنوى وستعجز كل وسائل الاحصاء عن تقدير ما ينتج عن هذا الكسب المعنوى من مكاسب مادية "(٢)

ويقول باحث آخر : "إن المجلات تموت ، لا لأنها تحتاج إلى المال وحسب، وإنما لأن رؤساء تحريرها يسمحون لها عن عمد أن تموت - أحيانا بسبب الاحباط أو الاجهاد وأحيانا لأنهم يشعرون بأن واجب المجلة قد تم انجازه "(٣)

وبعد فالمجلة ليست هي الوعاء الخارجى الذي ليس له من مهمة إلا أن يجمع جمعا آليا بين الآثار الأدبية أو بين الأسماء الأدبية.

---

(١) دفاع عن الأدب جورج ديهامل ص٦٤ ترجمة وتعليق د/محمد مندور سلسلة من الشرق والغرب . (٢)مجلة "الآداب" مرجع سابق ص٣٦ .

(٣)المجلات الأدبية فى مصر - د/ على شلش ص٤٧ الهيئة العامة للكتاب .

وإنما هي كائن حى يغذو ويغـــتذى ، ويمد ويستمد ، ويفعـــل وينفعـــل ، ويشاطر ويخاصم ، وهي الأرض التى تبدأ عليها الشتلات والـــبراعم الأدبيـــة والفكرية حياتها ، فمن أعماقها تستمد غذاءها ، وفى نطاقـــها تتـــآخى وتتجمـــع وتتبلور فيجور الجذر على الجذر ويحجب النبات النبات أو يحميـــه أو يظللـــه ، وهى أكثر من هذا حافظة التراث ، وذاكرة الأمة ، وجامعة من لم ينتم لجامعـــة ، تتفوق على غيرها من الجامعات الرسمية بحريـــة البحـــث وحداثتـــه وتجـــدده المستمر والتحلل من التقاليد والأعراف الجامدة .

عدى بن الرقاع العاملى

شاعر أهل الشام فى العصر الأموي

د/عبدالرازق حويزي

" ابن الرقاع " هو أبو داود عدي بن زيد بن مالك بن عدى بن الرقاع العاملى، من قبيلة " عاملة" التى ترجع فى نسبها إلى "قحطان" ، نزحوا عن اليمن إلى الشام قبل الإسلام ، وديار "عاملة" مجاورة للأردن ، وجبلها مشرف على " عكا" من قبل البحر ، يليها ويطل على " الأردن " ، يقول " ابن خلدون " فى كتابه :"العبر" إن بنى " عاملة" بطن متسع وموطنهم ببرية الشام ، ونسب النسابون "عديا" إلى الرقاع " وهو جد جده لشهرته.

ولد "عدى" فى العقد الرابع من القرن الأول الهجرى، ونشأ فى "دمشق" عاصمة الدولة الأموية فهو من شعراء الدولة الأموية ، كان شاعراً مقدماً عند بنى أمية ، مداحاً لهم ، خاصاً بالوليد بن عبدالملك ، وكان هواه معهم ، يمدح أحياءهم ، ويرثى أمواتهم ، ويذهب مذهبهم ، ويكافح معهم بسنانه ولسانه ، وهو يصدر فى كل ذلك عن عاطفة متقدة وشعور جياش ورأى حصيف وعقيدة راسخة ، فهو ماء زلال على من ناصرهم ولف لفهم ، ونار على من عاداهم ونازلهم ، وخير مثال على ذلك قصيدته التى قالها يمدح " الوليد بن عبد الملك " ، والتى يقول فيها:

لعمرى لقد أصحرت خيلنا بأكناف دجلة للمصعب

وفيها يقول :

وما قلتها رهبة إنما يحل العقاب على المذنب

وكان "لعدى" بنت شاعرة تدعى "سلمى" ، جعله " الجاحظ " مــن الشـعراء الأدران ، ولم يضمه إلى العرجان على الرغم أنه منهم ، ويقول "ابن عساكر" أنه كان أبرص ٠

كان " عدى" فخوراً بنفسه وبأخلاقه ، تياهاً كثيرا لاعجاب بشعره حتى سـماه " جرير" بالشاعر المغرور إذ قال عنه :

إنى إذا الشاعر المغرور جربنى   جار لقبر على مرّان مرموس

ومما يدل على غرور " ابن الرقاع " وإعجابه بنفسه قوله :

وبقيت حتى ما أسائل عالمــا   عن علم واحدة لكى أزدادهـا

وعندما أنشد " ابن الرقاع " هذا البيت فى حضرة " الوليد بن عبــد الملـك" سخر" كثير" منه ، إذ قال : كذبت ورب البيت الحرام ، فليمتحنك أمير المؤمنيـن بأن يسألك عن صغار الأمور دون كبارها حتى يتبين جهلك ، وما كنــت قـط أحمق منك الآن حيث تظن هذا بنفسك ، فضحك الوليد ومن حضر ٠

ويبدو أن " ابن الرقاع " كان شديد العارضة ، حاضر الجواب ، متقد الذهن ، دخل " جرير" على " الوليد بن عبد الملك" وعنده " ابن الرقــاع" ؛ فقــال لــه " الوليد":أتعرف هذا؟ فقال: لا يا أمير المؤمنين ٠ فمن هو؟ قال: هذا"عــدى بـن الرقاع" قال "جرير" : فشر الثياب الرقاع ، فممن هو؟ قال : من " عاملة"٠ قــال "جرير": أمن التى قال الله – تعالى – فيها "عاملة ناصبة تصلى ناراً حامية" ثـم قال:

يقصر باع العاملى عــن الندى   ولكن ٠٠٠٠٠٠٠٠طويل

فقال له "عدى":

أأمك كانت أخبرتك بطولــــه أم أنت امرؤ لم تدر كيف تقول؟

فقال " جرير" لابل أدرى كيف أقول • فقال الوليـــد : والله لــيركبنك شــاعرنا ومادحنا والراثى لأمواتنا• تقول هذه المقالة ؟! والله لئن هجوته لأفعلن ولأفعلــن • فلم يصرح "جرير" بهجائه وعرض فقال قصيدته التى أولها:

حي الهدملة من ذات المواعيس

يعرض فيها " بابن الرقاع"•

وقد عاصر " عدى" عبد الملك بن مروان ، والوليد بن عبد الملك ، وسـليمان ابن عبد الملك ، وعمر بن عبد العزيز وقد امتدت خلافة هــؤلاء حتــى سـنة ١٠١هــ • وهى نهاية خلافة " عمر بن عبد العزيز " ، وله مدائح فى " عمر بن الوليد " ، وكان " عمر" حياً سنة ١٢٦هــ مما يدل على أنه توفى فى هذا العام أو قبله •

" وابن الرقاع" من حاضرة الشعراء لامن باديتهم ، وهو من طبقـــة عبيـد الشعر الذين يحملون أنفسهم على تنقيح شعرهم وتثقيفه ، ولايزالون ينظرون فيه المرة تلو الأخرى ، يحذفون ألفاظاً ، ويبدلون ألفاظاً بأخرى ، ويقدمون مفـردات ويؤخرون أخرى ، ويعتصمون بمعنى ويطرحون آخر ، وهم فـــى كــل ذلــك يؤثرون كلمات بعينها وحروفاً بذواتها ، رغبة منهم فى الوصــول إلــى المثـل الأعلى فى الشكل والمضمون ، والنموذج المحتذى فى الإبداع الفنى ، وقد عــبر عن ذلك " ابن الرقاع " ؛ إذ قال موضحاً منهجه فى قرض الشعر:

وقصيدة قدبت أجمـع بينها حتى أقوم ميلها وسنادهـــا
نظر المثقف فى كعوب قناته حتى يقيم ثقافه منآدهـــا

وقال أيضاً:

أحـبر قـولا لن يحبر مثـله له صاحب غيرى ولو كان مغربا
قوافي لو كانت من البز لم تبع ولم تكس إلا ذا تمام مجـــربا

وظهر أثر التثقيف على عناصر البناء الفنى فى شـعر " ابـن الرقـاع" ، فجاءت ألفاظه فياضة بالرقة ، سيالة بالعذوبة ، بعيدة عن الغرابـة والحوشـية، موحية فى كثير من الأحيان ، وليس هذا من الغرابة فى شئ ، فهو ينتقيها انتقـاء، ويختارها اختياراً ، ويؤثر بعضها فى مواضع ، ويطرح بعضها فى مواضـع أخرى، كما كان لنشأته فى البيئة الشآمية أثر ظاهر على ألفاظه حيث اشـتملت على كثير من ألفاظ الحضارة .

وكما كان لهذين العاملين - التثقيف والنشأة - أثر واضـح علـى عنصـر الألفاظ كان لهما أيضا أثر جلى على العنصر الثانى من عناصر البناء الفنـى ؛ وهذا العنصر هو عنصر المعنى ، فنلاحظ أن معانيه جاءت واضحـة وضـوح الشمس فى رائعة النهار ، بعيدة عن التعقيد ، قريبة إلى الأذهان ، تفهمها العامـة والخاصة ، كما كثرت فى شعره المعانى الحضرية ، وبذلك توارت - إلى حد ما - المعانى البدوية مما جعل معانيه متميزة عن معانى الشعراء الذين عاصروه.

أما الأسلوب وهو العنصر الثالث من عناصر البناء الفنى ، فقد جاء واضحاً سلساً ، ليناً سهلاً، ولكن سهولته لم تهبط إلى درجة الإسفاف والابتذال ، وأهـــم مايلاحظ على الأسلوب أنه أتى متناسقاً مع المعنى ، منسجماً مع جرس الألفاظ ، ومتسقاً مع العاطفة والإيقاع ٠

وهو - بعد ذلك - متفق مع التصوير ٠ ولعل أهم سمة تميز أسلوب "ابن الرقاع" أنه أسلوب حضرى ، يختلف كل الاختلاف عن أسلوب أهل البادية ٠

وقد اختار " ابن الرقاع" من الموسيقى الأوزان التى يتـــلاءم مـــع ألفاظـــه ومعانيه وأساليبه وعاطفته وموضوعاته وتجاربه ، كما اختار ألفاظ قوافيه بعناية تامة، فجاءت قوافيه ، متمكنة غير قلقة فى مواضعها ، يعوزها البيت ، ويفتقـــر إليها المعنى ٠ ومن هنا أذهب إلى أن وسائل الشاعر وأدواته المتنوعة قد اكتملت من حيث البناء وتوافقت من حيث الشكل مما مهد له الخوض فى غمار العديـــد من الموضوعات ٠

أما مضمون البناء، فقد دار أكثره حول الوصـــف ، والمـــدح ، والفخـــر ، والغزل، ٠٠٠ وشغل موضوع الوصف الحيز الأكبر فى مجال المضمون الفنى٠

وإذا تركنا البناء الفنى وانتقلنا إلى الصورة الفنية وجدنا النقاد القدامـــى قـــد أجمعوا على براعة " ابن الرقاع " فى رسم صوره بدقة ، وليس هذا من الشـــارد فى شئ ، فالشاعر كما تؤكد قصائده وألفاظه أنه كان شاعراً حضريا يسرى ظـــل الترف فى أبياته ، ويموج النعيم فى قصائده ، وتنساب الحضارة فـــى ديوانـــه،

وتتلألأ مفردات الحياة الاجتماعية فى صوره ، وهو يستعيد التشـــبيهات التـــى أمتلها عليه طبيعة الحياة ولونتها رفاهية الواقع الجديد الذى عاشه الإنسان العربى فى ظل التقاليد الحضرية ، وهذا بدوره حمله إلى اختيار ألفاظه وصـــوره بدقـــة وبعناية ٠ ويكاد يجمع البلاغيون والنقاد على إجادته وبراعته فـــى التصويـــر الشعرى، فهو يستكمل أبعاد الصورة بما يضاف إليها من لواحق ، وما تلون بـــه من أشكال فمن صـــوره الطريفة المشهورة تلك الصورة التى حســـده عليـــها "جرير" ، وهو يشبه فيها قرن الظبى بالقلم الذى غمس فى المداد ٠ يقول " ابـــن الرقاع":

تزجى أغــن كأن إبرة روقــه قلم أصاب من الدواة مدادهـــا

وقال " أبو هلال العسكرى" عن هذه الصورة :" وأمـــا قول عدى فى صفـــة قرن الظبى فليس له شبيه"٠

ومن صوره الجيدة التى تدل على براعته فى فـــن التصويـــر الفنـــى تلـــك الصورة التى وصف فيها حماراً وأتانه وما يثيرانه من الغبار :

يتعاوران من الغبار مـــلاءة بيضاء محكمة هما نسجـــاهـــا

تطوى إذا وردا مكانا جاسيا وإذا السنابك أسهلت نشراهـــا

وقد عقب صاحب الخزانة على هذه الصورة فقال :" وهذا أحسن ماقيل فـــى وصف الغبار والعجاج"٠

وقال " أبو هلال العسكرى" : " ولا أعرف فى صفة الغبار أحسن ولا أتم من هذا "٠

ومن الصور التى تحتاج إلى دراسة جادة قوله يصف العين والنظر:

لولا الحياء وأن رأسى قدعثا ... فيه المشيب لزرت أم القاسم
فكأنها بين النساء أعارها ... عينيه أحور من جآذر جاسم
وسنان أقصده النعاس فرنقت ... فى عينه سنة وليس بنائم

فقد استشهد بها المفسرون وأصحاب المعاجم والبلاغيون وأصحاب كتب الأدب والأمالى ومجاميع الشعر حتى تجاوزت أعدادهم الثلاثين • وقد قال " الأصمعى" :" وأحسن بيت قيل فى فترة الجفون بيت ابن الرقاع " وذكر البيت الثانى• واستحسن " أبو عبيدة " البيت الثالث ، وقال :" ما أحد قال فى مثل هذا المعنى أحسن منه فى هذا الشعر" • وقال " الخالديان" :" ولعمرى إن بيتى ابن الرقاع هذين فى نهاية الحسن " وقال " الثعالبى" :" ولايعرف مثل قوله فى وصف المرأة " ، وقال القاضى "على بن عبد العزيز الجرجانى" :" وأما قول عدى "وسنان" فقد زاد به على من تقدم وسبق بفضله جميع من تأخر ، ولو قلت اقتطع هذا المعنى فصار له وحظر على الشعراء ادعاء الشرك فيه لما أرانى بعدت عن الحقد ولا جانبت الصدق " ، وعندما سئل جرير : من أنسب الشعراء؟ قال :" ابن الرقاع "، وذكر قوله :" لولا الحياء" ، ثم قال : ماكان يبالى إن لم يقل بعدها شيئاً ، وذكر صاحب الأغانى أنه انفرد بوصف المطية ، وتقدم على كل من وصفها ، وقال :" ابن قتيبة " عنه :" كان شاعراً محسنا وهو أحسن من وصف ظبية "•

القصة في الشعر العربي

د. أنور فشـــــوان

إن ثمة عـــلاقة حميمة بين الدلالة الحقيقـية للألفـاظ والمصطلحـات ، وبين التصـــور الذهنى للخلفية الثقافية والمعــرفية في استعمالاتها ، وفـــي إطار هذه العلاقة تتحدد المعــاني ، وتــترجم الألفـاظ إلــى دلالات معلومـة وواضحة.

وفى استعمالاتنا الأدبية حين نستخدم مصطلح "القصة" ، فإن تصورا ذهنيـــا يجرنا إلى خلفية ثقافية تعنى بمكونات محددة الإطار ، واضحة المعالم ، تتمثـــل فى هذه العناصر الفنية الخالقة للحدث الدرامى ، تلك التى تتشكل فى إطار عمل فنى محكم البناء ، تتضمن بداية ونهاية ، وعقدة وحلا ، وأشخاصا بين أبطـــال وثانويين ، وحوارا محكما ، وحبكة قصصية ، مما يشكل في النهاية قالبا دراميـا فنيا يتحدد مفهومه في إطار التصور الذهني بمصطلح القصة ، ويراد بها القصـة المنثورة.

ومثل هذا اللون الفنى فى صورته المعقدة ، وفى عناصره الفنيـــة المكتملـة الناضجة ، لم نعرفه إلا فى حياتنا المعاصرة ، وكانت بداياتها فى القرن التاســع عشر - وبخاصة فى أوربا - ثم أخذت تتطور تطورا كبيرا حتى بلغت ذروتـــها في القرن العشرين ، ومن ذلك الحين أخذت القصة المنثورة تتحدد فى أشـــكالها وقواعدها ، ويضع لها النقاد أسسا مرسومة من أدوات وعناصر ، ومعالم فنيـة ، ويؤسسون لها - كذلك - تياراتها الفكرية والفلسفية ، فيما تعالجه من مضـــامين ، وتتوجه إليه من رسالة إنسانية معاصرة .

بيد أن الأمر يختلف حين تصاغ هذه القصة فى قالب شعري منظوم ، فإن كثيراً من هذه العناصر الفنية الطبيعية في بناء القصة تتقلص نتيجة لقيود الأوزان والحس الموسيقى ، كما أن كثيراً من تفاصيل القصة وتنامى أحداثها تعرقلها هذه المساحة المكتنزة فى تشكيل القصيدة ، ومن ثم فلا يصبح في وسـع الفنـان أو الأديب إلا أن يتحرك في نطاق ضيق ، يضطره إلى الاكتفاء بحيز " اللقطة" ، أو " الحدث الفرد " ، أو " الواقعة المسجلة " ، على أن هذه المساحة الضئيلة لا تمثل عائقاً أمام إبداعية الشاعر المتمكن من أدواته ، في أن يلقي فـي روع القـارئ ووجدانه كثيراً من عناصر الفن والتشويق والمتعة ، فبالرغم من تسجيله لأحـدى اللقطات المصورة ، في حيز ضيق داخل منظومته الشعرية ، لكنها جديرة بـأن تعج بكثير من الصور والحركة، والحوار والأشخاص ، وهذا ما يمكن أن نسميه بالقصة القصيرة ، لكنها فى قالب شعري أخاذ وعجيب .

و بالرغم من " موضوعية " الفن القصصي ، و" ذاتية" الشعر الغنائي ، فـإن القصة والقصيدة يدنو كل منهما من الآخر فى بعض الأحيان ، حتى لتكاد تكـون القصة قصيدة فقدت الوزن ، أو القصيدة ، قصة أخضعها الانفعال العارم والخيال المجنح إلى الانطلاق والحركة ، فكلتاهما تعبر عن لحظـة أو موقـف أوحالـة أوحدث واحد ــ فيتركز فيه الانفعال ، ويتركز حوله التعبير .

ولكن هذا التقارب لايخفى ما بينهما من تباعد فالقصيدة التى تتخـذ صـورة القصة لايمكن أن تصبح واقعية خالصة ، ولاتستطيع أن تحرص على التفـاصيل ، ولاعلى التسلسل الكامل ، ولاتعنى بتحديد أبعاد الشخصيات وملامحها النفسية ، بقدر حرصها على إبراز انفعال الشاعر ، على حين تخضع القصة المنثورة لذلك

كله ، وتحسن أداءه٠

وعليه فقد قسم النقاد الشعر إلى أقسام ثلاثة : الشعر القصصي ، والشعر التمثيلي ، والشعر الغنائي ، أما الشعر التمثيلي فترى الكثرة من الباحثين في الأدب العربي ، أنه لم يعرف إلا في العصر الحديث ، ثم يختلفون في الشعر القصصي ، فيؤكد أكثرهم أن العرب لم ينظموا منه شيئا في عصورهم القديمة ، وترجح قلة وجوده عندهم ، وذلك مما نراه ممثلا لذلك النوع من الشعر في أدبهم ، أما الشعر الغنائي ، فهو الفن الذي أبدع فيه العرب ، وأتوا بما أدهش القدماء، ومازال يملك منا القلوب ، ويأسر الألباب ٠ (١)

والحق أن المتفرس بين أعطاف الشعر العربي في مختلف عصوره ، يجد غناءه بهذا اللون من الشغر القصصي ، والذي يمثل أحد الجوانب الإبداعية في مجال القصص الفنى عامة ، من ثم فإصدار حكم نقدي في مستوى " الترجيح" من قبل ثلة قليلة من الباحثين ، فضلا عن الإنكار من قبل الكثرة ، يعد مخالفة صارخة للواقع الأدبي عند العرب ، ولعل هذا الإنكار إنما هو مجرد مجاراة من قبل فئة من الباحثين لآراء الغرب ودعاواهم الباطلة ، التى لاتدعمها حجة ، أو ينتصر لها برهان ، كما هو الحال عند المستشرق والفيلسوف الفرنسي " أرنست رينان " ، وتابعه في ذلك بعض الأدباء العرب في العصر الحديث ، حيث يرى : "أن العقل السامى يميل بطبعه إلى التجريد ولا ينزع إلى التجسيم ، وإن البيئة الصحراوية التى عاش فيها العرب لم تكن غنية بالمناظر المتنوعة ، فلم تمنحهم

---

(١) انظر :آراء حول قديم الشعر وجديده - د/حسين نصار - الكتاب العربى - ص ٣٢

المخيلة الخالقة المبتكرة التى تتوافر للغربيين " (١)

ومن العبث أن ندلل على أن بيئة من البيئات ، أو قبيلا من الناس تتوافر له طبيعة خلاقة فى القصة ، فالإنسان قصاص بطبعه في كل مكان وزمان ، يحكى مايحدث له ، وما يشاهده ويسمعه ، فإن توافرت له ثقافة ضمنها ما يحكى وأكسبه قيمة أدبية ٠

والأدب العربي - بعامة - عرف القصة القصيرة ، وأهدى العالم منها ما لايزال موضع إعجابه وتقديره ، لكنها قصص لها شكلها وقواعدها الخاصة(٢) التى تطورت مع تطور الأدب العربي ذاته ، فقد كان لأدباء العرب تصورهم الخاص للقصة القصيرة ، نثرية كانت أو شعرية ، وهذا التصور يجب أن نضعه نصب أعيننا حين نعالج القصة العربية القديمة ٠

وتشير الشواهد كلها إشارة واضحة إلى أن الأدب العربى عرف القصة فى كل عصوره ، بل وعرف منها ألوانا وفنونا ، إلا أن الشواهد كلها أيضا نقول إن هذه الصور قد أخرجتها أيدى المؤرخين القدماء ، والدارسين الراصدين للإنتاج الفنى من إطار الأدب إلا ما سفّ منها وأصبح بلا غناء فى تطور أو إشباع ،

(١) انظر:القصة القصيرة فى مصر ٠٠"- عباس خضر - الدار القومية سنة ٦٦ ص١٤ ٠

(٢) انظر تفاصيل هذه القضية فى كتاب : التراث القصصى عند العرب للدكتور مصطفى الشورى ، وكتاب: القصة فى الأدب العربى القديم للدكتور محمودذهنى

وما انحرف منها عن الهدف الأصلى لكتابة القصة إلى أهداف أخـــرى تلائـم مفهوم هؤلاء المؤرخين والراصدين للأدب من ارتباط بين سلطات الحكم وبيـن الإنتاج الفنى ، ومن علاقة لابد أن تتحقق بين مايثبتون من إنتاج وبين أشـكال الفن التى تخدم سلطة الحكم القائمة ، بل وبين علاقة أصحاب الإنتاج بأصحـاب السلطة فى عصرهم ٠(١)

وثمة إجماع على أن العرب في الجاهلية كانت لهم قصصهم التي شغفوا فيها بالتاريخ والحكايات التى تدور حول أجدادهم وملوكهم وفرسـانهم وشـعرائهم ، وكتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى يكاد يكون ذخيرة كاملة مـن القصـص الذي تناقله الناس عن شعرائهم ومجالسهم وملوكهم ، بل إن هذا الكتـاب لفـى حاجة إلى دراسة فنية متعمقة فيما يتعلق ببنائه القصصـي فـى حكاياتـه عـن الشعراء، فإن أبا الفرج يرسم في كل فصل من فصول كتابـه صـورة كاملـة لمجلس من المجالس ، ويكاد يحدد لك في براعة ودقة كل ما في المشـهد مـن جزئيات وعناصر تتعلق بتسجيل الحدث وتفاصيل الرواية ٠

وعلى خلاف مازعمه " أرنست رينان " وأضرابه نجد مستشرقين آخريـن اهتموا بالجانب القصصى في أدب العرب ، وتحدثوا عن روائع منه ، وبينوا أثره في الأدب الغربي ، ومنهم المستشرق الأستاذ " جب" الذي عنى فى كتاب "تـراث الإسلام" ببيان أثر الأدب العربي وخاصة أدب القصة فى العصور الوسطى" (٢)

---

(١)انظر :فىالروايةالعربية – فاروق خورشيد – دار الشروق ط٣سنة٨٢ ص٢٥

(٢)القصة القصيرة فى مصر – عباس خضر – ص١٥ ٠

كما أننا نجد كثيرا من الدارسين العرب الذين عنوا برصد هذا الجانب في الأدب العربي ، وبخاصة فى عصوره القديمة ، وعلى رأسهم الأستاذ " محمود تيمور" الذي يقول : "إنى لأومن اليوم بأننا نزاول فن القصة بألوان شتى من وراثات عربية أصيلة ، فأعمالنا القصصية العصرية تحمل لقاحها من أدبنا العربي العريق ، ومن قصصنا الشرقى التليد"(١)

ويردّ بفكر متزن ونظرة صائبة على هؤلاء المنكرين للقصة فى الأدب العربي ، فيقول : " وما كان ذلك الإنكار إلا لأننا وضعنا نصب أعيننا القصة الغربية فى صياغتها الخاصة بها ، وإطارها المرسوم لها ، ورجعنا نتخذها المقياس والميزان ، وفتشنا عن أمثالها فى أدبنا العربي ، فإذا هو قد خلا منها أو يكاد ، وشد ما أخطأنا فى هذا الوزن والقياس ، فللأدب العربي قصص ذو صبغة خاصة به ، وإطار مرسوم له " (٢)

ومنهم - كذلك - الدكتور " محمد غنيمى هلال" الذي درس دراسة مقارنة بعض الأعمال القصصية العربية وتأثيرها في الأدب الأوربية ، مثل " ألف ليلة وليلة" ، والمقامات ، وقصة " حى بن يقظان " ، كما درس بعض القصص الغربية وتأثرها بالأدب العربى مثل قصص الحب والفروسية وقصص الشطار الأسبانية٠(٣)

---

(١) القصص فى أدب العرب - محمود تيمور - دار الثقافة - ص٢٥ ٠

(٢)السابق ص ٢٦ ٠

(٣) طالع تفاصيل هذه الدراسة فى كتابة : الأدب المقارن ٠

أما الأستاذ " فاروق خورشيد" فهو يأخذ - بحق وبشـدة - علـى الدارسـين للأدب العربى إهمالهم للناحية القصصية فيه ، وافترض وجود ألوان مختلفة مـن القصص فى تراثنا العربى ، وأثبت افتراضه بكثـير مـن الأدلـة والنصـوص القصصية، وبخاصة ما ورد بكتابين فى القصص الجاهلي دونـا فـى العصـر الإسلامي ، هما كتاب " التيجان في ملوك حمير" لوهب بن منبه ، وكتاب " أخبار ملوك اليمن " لعبيد بن شريه الجرهمى "(١)

وينبه جورجى زيدان " إلى أنه :" إذ أمعنا النظر فيما خلفـه العـرب مـن أخبارهم وآدابهم وجدناه لايخلو من التمثيل بأعم معانيه ، وإن لـم يكـن شـعرا مجردا بل هو مزيج من الشعر والنثر ، وقد وصل إلينا فـى قـالب القصـص والحقائق التاريخية ، ·· وأكثر تلك القصص ترمى إلى تمثيل الفضائل البدويـة التى يقدسها العرب ، كالوفاء والضيافة والشجاعة والجوار، والعفة والفروسـية ونحوها تمثيلا يحببها إلى الناس ، ويرغبهم فيها ، وجعلوا أبطالها رجـالا مـن مشاهيرهم في تلك المناقب · (٢)

ليس من الإنصاف - إذن - أن يرمى العرب بالتقصير والتفكير السـطحى دون أن تعمق في دراسة آثارهم الفكرية والأدبية دراسة واعية متأنية ، فـالواقع أن العرب فى مختلف العصور كانت لهم فنونهم القصصية النابعة من بيئتـهم ، والمصورة لحياتهم وعقائدهم ،ومغامراتهم وبطولاتهم ،وكانت هذه الفنون متقدمة

---

(١) طالع كتابه : فى الرواية العربية ·

(٢)تاريخ آداب اللغة العربية - جرجى زيدان - دار الهلال - ج١ ص٥٣ ·

فى أزمانها وإن اختلفت فى النوع عن تراث الغرب باختلاف ظـروف البيئـة ، والأحوال الاجتماعية .

ولقـد كان الشعر لدى العـرب هـو كل شئ في حياتـهم " هـو العلـم ، والحكمة ، والتـاريخ ، والسـياسة، وهو القول المثـير الذي يأخذ بالألبـاب ، من ثم فالشـاعر يروى التـاريخ ويحفظ الأسـاطير ويستنـبط العـبر ، وحيـث إن الشعـر في الآداب سـابق على النـثر ، وإن كان النثر من حيـث هـو حـديث عادى أقـدم من الشعر وأسبـق - فإن القصـة الشعـرية أسـبق من القصـة النـثرية ، وليـس أدل على ذلك سـوى أن اليـونان قد عرفـوا الإليـاذة قبـل أن يعـرفوا فلسفة أرسطو وأفـلاطون ، لذا فـلا غـرابة أن نجد فيه إشـارات لقصصهم الأسطـورية والخيالية ، حـرص الشعراء علـى ذكـرها وتضمينها شعـرهم ، والتنويه بها فى سيـاق حديثهم ، من ذلك نجـد أخبارا عن قصة عاد وثمـود وطسـم وجديـس وزرقاء اليـمامة ، وقصـة الزباء والسمـوءل بن عـادياء والأحنـف بن قيـس ، أضـف إلى ذلـك أن هناك بعض الشعراء قد حكوا أو قصوا لنا قصصا ترتبط بحياتهم الخاصة ، وإذا لم يكونوا يعرفون هذا الفن وقواعده المعروفة آنذاك لما استطاعوا اتقانـه فـى شعرهم كما سوف نرى فيما بعد .

ولعل أقـدم الفـن القصص عنـد العـرب ، القصـص الخرافية ، كمـا هى الحـال فى البـداية لدى كـل المجتمـعات القديـمة ، وكلمـة" الخرافـية" نفسـها تضع أيدينـا على البـداية العربية ، فما زلنا نـردد هذه الكلمة فى معارض مختلفة ، فهذه أحاديـث خرافة ، وهذا كلام خرافى ،

وفلان يخرف ٠٠ الخ٠٠(١)

ومما يدل على وجود مثل هذه القصص ، وأنها كانت تعد من الأدب ، ما حكى من أن سهل بن على أبى غالب الخزرجى وضع كتابا فى الجن وأخبارها ، وحمله إلى هارون الرشيد فقال له فيما قال : " إن كنت رأيت ماذكرت فقد رأيت عجباً ، وإن لم تكن رأيته فقد وضعت أدباً ٠ (٢)

واتخذ كثير من شعراء العرب فى العصر الجاهلي موضوع الجن والغيلان مجالاً للتعبير عن الشجاعة والبطولة ، ومنهم الشاعر " تأبط شراً " الذى يقص علينا فى شعره كثيراً من وقائعه مع الغيلان وكانوا يعتقدون أن الغول إذا ضربت بالسيف ضربة واحدة هلكت ، فإن ضربت ثانية عاشت ، ويحكى " تأبط شراً " - كما ورد في الحماسة - إحدى مغامراته مع الغول ، فيقول :

لقيت الغول تسرى فى ظلام ٠٠ بسهب كالعباءة صحصحان

ويمضى فى قصيدته حتى يقول إنه ضربها بالسيف :

فقالت ثنِّ ، قلت لها : رويداً ٠٠ مكانك إننى ثبت الجنان

---

(١) أصل كلمة خرافة ترجع إلى رجل من بنى عذرة يسمى"خرافة"، زعم أن الجن قد اختطفته ومكث عندهم مدة، ثم أعادوه إلى قومه، وراح يحكى غرائب مشاهداته فى بلاد الجن وعجائب ما وقع له معهم ، فكان قومه يستمعون إليه ويعجبون ، ثم يقولون :" أحاديث خرافة" ، وصار هذا يطلق على كل كلام غريب لايصدق ٠

(٢)ابن خلكان - وفيات الأعيان - ترجمة معاذ بن مسلم الخزرجى٠

لكنه لم ينخدع بكلامها وتحديها له أن يضربها ضربة ثانية ، بل تركها تموت من الضربة الواحدة ، وانتظر إلى الصباح ليرى ماذا حدث لها ، فقال :

ولم أنفك مضطجعا لديهــا ٠٠ لأنظر مصبحاً ماذا دهانـــى

إذا عينان فى رأس دقيــق ٠٠ كرأس الهر مشقوق اللســان

الأسلوب القصصي عند امرئ القيس :

والأسلوب القصصى قديم فى الشعر العربي ، وله قدم راسخة لدى الشـعراء الجاهليين ، حتى صار لديهم تقليداً يحرصون عليه في تسجيل ذكرياتهم وحوادثهم ومغامراتهم مع النساء والصيد ، بين طرد وقنص ، وغرام ومتع ٠

ومن القصص العاطفية التى سجلها لنا الشعر الجاهلي قصة امرئ القيس مـع نساء الحى : عنيزة وفاطمة وأم الحويرث ، وقد صدر بها معلقته المشـــهورة ، قال الفرزدق :" حدثنى جدى - وأنا يومئذ غلام حافظ - أن امـــرأ القيـس كــان عاشقاً لابنة عمه - ويقال لها عنيزة - وأنه طالبها زماناً فلم يصل ، حتى كان يوم الغدير - وهو يوم دارة جلجل - وذلك أن الحي تحملوا فتقدم الرجال وتخلــف النساء والخدم ، فلما رأى ذلك امرؤ القيس تخلف بعدما سار مع رجـــال قومــه غلوة، فكمن فى غابة من الأرض حتى مر به النساء وفيهن عنيزة ، فلمـــا وردن الغدير قلن : لو نزلنا واغتسلنا فذهب عنا بعض الكلال ، فنزلن فى الغدير ، ثـــم تجردن فوقعن فيه ، فأتاهن امرؤ القيس ، فأخذ ثيابهن فجمعها وجلس عليها ، ثـم قال والله لا أعطى جارية منكن ثوبها ولو قعدت فى الغدير يومها حتى تخـــرج متجردة فتأخذ ثوبها، فأبين ذلك عليه حتى تعالى النهار وخشين أن يقصرن عــن المنزل الذى يرونه ، فخرجن جميعاً غير عنيزة فناشدته الله أن يطرح ثوبها،

فأبى ، فخرجت فنظر إليها مقبلة مدبرة ، وأقبلن عليه فقلن لـــه : إنــك عذبتنـــا وحبستنا وأجعتنا ، قال : فإن نحرت لكن ناقتى أتاكلن معى ؟ قلن : نعم - إلـــى آخر القصة حيث نحر لهن وأكلن معه ، وقضوا يوما سعيدا ، وعند الرواح ركب مع حبيبته ينعم بحبها - قال :

ألا رب يوم لك منهن صالـــح ولا سيما يـــوم بدارة جلجـــل

ويوم عقرت للعذارى مطيتى فيا عجبا من كـــورها المتحمـــل

فظل العذارى يرتمين بلحمهـــا وشحم كهداب الدمقـــس المفتـــل

ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة فقالت : لك الويـــلات إ نك مرجلى

تقول وقد مال الغبيط بنا معـــا عقرت بعيرى يا امرأ القيس فانزل

فقلت لها:سيرى وأرخى زمامه ولا تبعدينى من جناك المعـــلل(١)

وإذا رجعنا إلى معلقة امرئ القيس (٢) التى يحكى فى مقدمتها هذه القصـــة، وجدناه يحكى - كذلك - في تلك المقدمة التى تبلغ نحو أربعين بيتا ، ما حدث لـــه مع عشيقاته عامة ، ومع ابنة عمه بوجه خاص وهى قصص تتفجر بالحيويـــة ، ففيها حوار شيق ، وتشخيص دقيق ، وتصوير عميق ، لما لاقـــاه مـــن أهـــوال وخطوب فى مغامراته المجونية.

---

(١) قصص العرب - محمد جاد المولى وآخرون - المكتبـــة العصريـــة - ج٤ ص٣٢٤ .

(٤)يحفل الشعر الجاهلى بالكثير من شعراء القصص الشـــعرى ، غـــير أنـــى اقتصرت على امرئ القيس لريادته فى هذا الجانب ، فضلا عن الاختصـــار فى التمثيل .

ولك أن تتابع معى تلك اللقطة المصورة فى إحدى غرامياته ، وبالرغم من حيزها الضيق فى تنامى أحداثها ، لكن الدقة فى الوصف ، وكثرة الحركة ، وتعدد الأماكن ، والحوار الشيق ، تجعلك تقرأ قصة قصيرة تكتنزها اللغة الحبلى بالدلالات والتصوير ، وتتكثف عبر أدوات وعناصر فنية متمكنة .

يقول امرؤ القيس :

إذا ما الثريا في السماء تعرضت　　تعرض أثناء الوشاح المفصل(١)

فجئت وقد نضت لنوم ثيابها　　لدى الستر إلا لبسة المتفضل(٢)

فقالت : يمين الله مالك حيلة　　وما إن أرى عنك الغواية ينجلى

خرجت بها أمشى تجر وراءنا　　على أثرينا ذيل مرط مرجل(٣)

فلما أجزنا ساحة الحى وانتحى　　بنا بطن خبت ذى عقاف عقنقل(٤)

إذا التفتت نحوى تضوع ريحها　　نسيم الصبا جاءت بريا القرنفل

إذا قلت هاتى نولينى تمايلت　　على هضيم الكشح ريا المخلخل

مهفهفة بيضاء غير مفاضة　　ترائبها مصقولة كالسجنجل(٥)

تصد وتبدى عن أسيل وتتقى　　بناظرة من وحش وجرة مطفل

إنه يروى عن إحدى مغامراته الغرامية ، فيبالغ فى الوصف شأن الفن الواقعى الذى لم يظهر فى الأدب إلا فى القرن التاسع عشر ، وبطبيعة الحال لاتنتظر أن يكون واقعيا فى الأحداث ، وإنما يلقى فى روعك جسارته ورجولته ،

---

(١)الثريا : النجم.

(٢) نضت الثوب: خلعته – لبسة المتفضل: مايلبس عند النوم

(٣)المرط : ثوب من حرير – مرجل: مخطط .

(٤)عقنقل : الرمل الكثير المنعقد بعضه على بعض .

(٥) مهفهفة : ذات البطن الضامر – سجنجل : المرآة .

فمهما يكن من جمال المرأة فهى لا تستطيع أن تقاوم أسره وفتنته ، ومهما يكن حولها من حراس لايرام لها خباء ، فهو مقتحم المخاطر ، مرتاد الأهوال والمهالك فى سبيل الوصول إليها والظفر بها ، ايتمتع بها تمتع الوادع الآمن ، على هذا النحو الذى قصه ووصفه وحكاه .

والحق أن هذه المقدمة الغزلية لامرئ القيس ، والتى تعددت فيها صور المغامرات الغرامية مع النساء (١) تعد رائدة فى قصص الغزل ، وقد توفرت فيها عناصر كثيرة من مقومات القصة ، ففيها أبطال وزمان ومكان وحركة وحوادث وفكرة ، فالبطلان الأساسيان هما : امرؤ القيس وفاطمة ابنة عمه ، والأبطال الثانويون هم : أصحاب امرئ القيس الذين أقبلوا على مطيهم ويطلبون منه أن يرفق بنفسه ، وأم الحويرث وأم الرباب ، وهم أيضاً هؤلاء الحراس الذين يقومون على حراسة عنيزة ، وهم أيضاً أولئك العذارى اللائى كن فى الغدير مع فاطمة يوم " دارة جلجل".

وهذه المقدمة القصصية كانت بداية حسنة ، وبذرة صالحة لاستنبات الفن القصصى الشعرى فى العصر الجاهلي ، وقد ظهر أثرها فى الشعراء فيما بعد ، وبخاصة " عمر بن أبى ربيعة" الذى يعتبر من أنجب تلاميذ امرئ القيس فى هذا الضرب ، فقد تلقى أصوله عنه وخلفه فيه ، لكنه طوره وفصل أحداثه ، وأمعن فى تصوير مشاهده ، وأدار الحوار فى براعة ظاهرة واستقصاء بعيد ، كما سيتضح بعد.

---

(١)انظر : القصيدة كاملة في ديوانه .

عند عمر بن أبى ربيعة :

لعل عمر بن أبى ربيعة هو أول شاعر فى العربية أحب الحب لذاته ، وعشق الهوى نفسه دون أن يثبت على حب واحدة بذاتها ، كما فعل مجنون ليلى وكثير عزة وجميل بثينة ، ولكنه أحب الكثيرات ، وغنى الحب لجيله وللأجيال بعده ، ويبدو لى أن عمر أحب الشعر كما أحب الحب ، ولم يكن عمر شاعرا فقيرا يتكسب بالشعر ويتزلف به إلى ذى الوجاهة والغنى ، فهو ينتسب إلى قريش وحسبه هذا نسبا ، وهو غنى موفور النعمة ، فلم يكن فنه إلا للفن ، حتى إنه استطاع أن يفرض نفسه على جيله ، وعلى الأجيال من بعده ، لما فى ألفاظه من موسيقى ، وفى نظمه من إحكام ، فلا تحس عنده لفظة تنبو عن مكانها ، ولاقافية غير مطمئنة فى بيئتها .

وقصيدته " أمن آل نعم " من أعظم القصائد التى ثبتت دعائم القصة فى الشعر العربى، فهى قصة كاملة لو تجرد لها قلم كاتب روائى لأخرج منها رواية، فألفاظها سهلة ميسورة ومعانيها واضحة قريبة ، تتفجر صورها بالحيوية والحركة ودقة التصوير .

ونظرا لطول القصيدة ، فقد اجتزأت منها ما يبلور قصة ولا يخل بحركيتها وصورها الخالقة للأحداث ، فأكون قد حولتها من واقعيتها القديمة إلى واقعية حديثة ، فقد كان القديم يحفل بالتفاصيل ودقة الوصف ، وحين تطورت نظرية الأدب الواقعى أصبحت الخطوط القليلة تكون الصورة دون كبير عناد بالتفاصيل .

يقول عمر بن أبى ربيعة :

أمن آل نعم أنت غاد فمبكـــر غداة غـــــد أم رائح فمهجـــــر
لحاجة نفس لم تقل فيجوابها فتبلغ عــــذرا، والمقالة تعـذر
تهيم إلى نعم فلا الشمل جامع ولا الحبل موصول ولا القلب مقصر
إذا زرت نعما لم يزل ذو قرابة لها كلما لاقيتهـــا يتنمـــــر
عــزيزعليه أن ألــم ببيتهـــا يُسِرُّ لى الشحناء والبغض يظهــر
ألكنى إليها بالسلام فإنــــه يشهر إلمامــى بهـــا وينكـــر
بآية ما قالت غـــداة لقيتهـــا بمدفع أكنـــاف أهذا المشهـــر؟
أشارت بمدارها وقالت لأختهـــا أهذا المغيرى الذي كان يذكــــر؟
فقالت :نعم ، لاشك غير لونـــه سرى الليل يحيى نصـــه والتهجـــر

أرأيت كيف استطاع أن يروى لنا - فى صورة مكثفة - صلته القديمة بـها ، وكيف قامت العداوة والبغضاء بينه وبين أهلها ، ثم كيف طال البعـــاد بينـــهما ، وكيف هى من حبه حتى لتقول لرفيقتها إنه هو وقد حال لونه وتغير من طول ما سرى فى الليل ومشى فى هجير الشمس ، ولو أراد القاص المتمكن أن يقدم لـــك هذا التاريخ جميعه ، ما استطاع أن يقدمه في أبرع ولا أروع من هذه الصورة ، فهو يتنقل من لغة المتكلم إلى لغة الحوار في مقدرة فائقة ، حتى ما تكاد تحـــس بهذا التنقل .

ثم هو يومئ إلى القصة بهذه البغضاء التى يكنها له بعض أهـــل حبيبتـــه ، وكأن هذه البغضاء خبر يتلى ولاصلة له بعقدة القصة ، وهكذا يفعل القصصـــى البارع ، فهو لايكشف عن النهاية ، ومع ذلك لابد له أن يومئ بها إيماء حتـــى لا تجئ النهاية مفاجئة .

ثم يشرع فى قص ليلة " ذى دوران" على غرار " دارة جلجـل " لامـرئ القيس ، بيد أن القصة لدى " عمر" تتطور نحو البناء المكتمل العناصر ، الواضح الأجزاء ، فهو لا يورد الإشارة بعد الإشارة إلى حـادث وراء حـادث لايجمـع بينهما سوى الجو الغرامى كما فعل امرؤ القيس ، بل أورد عمر فـى قصيدتـه قصة واحدة • فقد خرج مع رفاق له عازما على زيارة حبيبته دون أن ينبئهم ، فلما جن عليهم الليل ، مالوا إلى الرقاد ، فنام عمر على الطرف كيـلا يوقظـهم عندما يقوم إلى الحاجة :

وليلة ذى دوران جشمتنى السرى وقد يجشم الهول المحب المغـرر

فبت رقيباً للرفيق على شفـا أحاذر منهم من يطوف وأنظـر

إليهم متى يستمكن النوم منهـم ولى مجلس لولا اللبانة أوعـر

وبت أناجى النفس أين خباؤهـا وكيف لما آتى من الأمر مصـدر

أرأيت هذه الحيرة التى تتردد فى نفسه ؟ إنها التشويق من الكاتب القصصـى القادر ، ولا يطيل من هذه الحيرة شأن الكاتب المترفع الذى يعـف عـن تقديـم التشويق للتشويق ، فيسوقه فى خيوط القصة سرا وكأنه لايريده لذاته :

فدل عليها القلب ريا عرفتهـا وهوى النفس الذى كاد يظهـر

وهكذا يعود الكاتب قصصيا رومنسيا ، لقد عرف الخباء بعبق يعرفـه مـن فتاته ويهوى قلبه الذى يكنه لها :

فلما فقدت الصوت منهم وأطفئـت مصابيح شبت بالعشاء وأنـؤر

وغاب قمير كنت أهوى غيوبـه وروح رعيان ، ونـوم سمـر

وخفض عنى الصوت أقبلت مشية ال حباب وشخص خشية الحى أزور

أرأيت القصاص كيف يرسم صورته حين اطمأن أنه يستطيع أن يذهب إلـــى ضحيتها التى عرفها برباها وحبه قام يمشى كأنه الحباب ملتفتاً إلى الحى محاذراً أن يراه أحد وهو فى كريقه إليها ، إنها صورة فنية متكاملة ٠

ودون أية مقدمات :

فحييت إذ فاجـــــأتها فتولهــت وكادت بمكنون التحـية تجهــــر

وقالت : وعضت بالبنان - فضحتنى وأنت امرؤ ميسور أمرك أعــسر

اريتك إذ هنا عليك ألم تخــــــف -وقيت - وحولى من عدوك حضر؟

فقلت لها: بل قادنى الشوق والهوى إليك وما عين من الناس تنظــــــر

ولك أن تستمع إلى بقية القصلة مرسلة ، منذ أن انسل إلى منـــازل الحبيبـة حتى ولج عليها خباءها ، ونعما معاً بحبهما، فنسيا مرور الوقت عليهما، حتــى سمعا أصوات الحى ، فكان الخوف منها والاضطراب منه ، وحدثت مفاجئـات ، واحتالا على الخروج من مازقها، فذلك الذى نسج أحداثه ، ورسم صوره حيــث قال:

فبت قرير العين أعطيت حاجتى أقبل فاها في الخـلاء فأكـــثر

وترنو بعينيها إلى كما رنــــــا إلى ظبية وسـط الخميلة جؤذر

فما راعنى إلا مناد : ترحلـــوا وقد لاح معروف من الصبح أشقر

فلما رأت من قد تنبه منهــــــم وإيقاظهم قالت : أشر كيف تأمـر

فقلت : أباديهم فإما أفوتهــــــم وإما ينال السيف ثأراً فيثـــأر

فقالت : أتحقيقاً لما قال كاشـح علينا وتصديقاً لما كان يؤثـــــر

فإن كان ما لابد منــه فغـــيره من الأمر أدنى للخفاء وأســـتر

أقص على أختى بدء حديثنـــــا ومالى من أن تعلما متأخـــــــر

فقامت كئيباً ليـــس فى وجهها دم	من الحزن تذرى دمعة تتحــدر
فقامت إليها حــرتان عليهمـــا	كساءان من خز: دمقس وأخضر
فقالت لأختيـــها أعينا على فتــى	أتى زائراً والأمر للأمر يقــدر
فأقبلنا فارتاعــتا ثم قالتـــا	أقلى عليك اللوم فالخطب أيسـر
فقالت لها الصغرى سأعطيه مطرفى	ودرعى وهذا البرد إن كان يحذر
يقوم فيمس بيننا متنكـــــرا	فلا سرنا يفشو ولا هو يظهـــر
فكان مجنى دون من كنت أتقـــى	ثلاث شخوص: كاعبان ومعصر
فلما أجزنا ساحة الحى قلن لـــى	ألم تتق العداء والليـــل مقمر ؟
وقلن أهذا دأبك الدهر ســـادراً	أما تستحى أو ترعوى أو تفكر ؟
إذا جئت فأمنح طرف عينيك غيرنـــا	لكى يحسبوا أن الهوىحيث تنظر
فآخر عهد لى بها حين أعرضـــت	ولاح لها خد نقى ومحجــــر

نستطيع أن نقول أن عمر بن أبى ربيعة قد اصطنع أسلوباً قصصياً فى مجال العاطفة ، يغلب عليه النزعة الواقعية العلمية التى لاتأنف من تصوير الواقــع ، فهو فى حديثه عن المرأة كان واقعياً صادقاً ، لأنه يعبر عن خلجات نفسها كمـــا هى فى جوهرها لاكما تريد أن تظهر للرجل، بمعنى أنه يصور نفســية المــرأة وعاطفتها لامن حيث اظهران للرجل بمظهر التأبى والتمنع وعدم الرغبة ، وإنما من حيث هما نفسية وعاطفة فى حقيقتها، ولعل ذلك هو الذى وسم غزله بــالغزل الصريح .

الامتداد والتطور

عرف الأدب العربي بعد ذلك - فى نطاق تطور القصة الشعرية - لونين مــن القصص : عرف القصص التى دونت نثراً فى أول الأمر ، ثم نقلها ناقلون إلـــى

النظم ، حيث تحدثنا بعض المصادر الأدبية بأن فكرة صياغة جزء من التراث قد أقدم عليها بعض الشعراء القدامى ، على نحو ما صنع " أبان بن عبد الحميد اللاحقى(١) حيث يقال أنه نظم " كليلة ودمنة" فى نحو خمسة آلاف بيت(٢) كما نظم سيرة " أردشير" و" أنوشروان" (٣) وماورد - كذلك - عن الشاعر المصرى " الأسعد بن مماتى " (٤) حيث نظم " كليلة ودمنة" وسيرة السلكان " صلاح الدين"(٥)

أما القصص الشعرى الموضوعي ، والتى تتوافر لها القواعد المرسومة اليوم فى الفن القصصى عامة فهى لم تشع فى أدبنا كفن من فنون النظم إلا إبان نهضة الأدب الأخيرة، وهى تنظم فى الغالب لأجل غرض من الأغراض الاجتماعية ، أو التبيان حقيقة من حقائق الحياة الإنسانية أو الفكرية.

---

(١)هو أبان بن عبدالحميد اللاحقى بن عفير ، شاعر مكثر، واكثر شعره من المزدوج والمسمط، اشتهر بنقل الكتب المنثورة إلى الشعر، ومنها كتاب " مزدك"[الفهرست لابن النديم – طبعة دار المعرفة ص ١٧٢ ، ٢٣٢ .

(٢)طبقات الشعراء لابن المعتز - تح: عبدالستار فراج - دار المعارف ط٤ سنة ٨١ ص٢٤٠

(٣)الفهرست لابن النديم - دار المعرفة - ص١٧٢ .

(٤)هو القاضى الأسعد أبوالمكارم بن مماتى المصرى، الكاتب والشاعر، ناظر الدواوين بالديار المصرية، له مصنفات عديدة وديوان شعر، توفى عام ٦٠٦ [وفيات الأعيان لابن خلكان ج١ ص٢٢٠]

(٥) وفيات الأعيان لابن خلكان = دار الثقافة - ج١ ص ٢١٠ .

ومن مراجعة ما نظم من قصائد فى عصرنا الحديث ، يبـــدو أن معظمــها وضع أثناء النصف الأول من القرن العشرين ،وهى إما ذات غايـــة إصلاحيــة تتعلق بأوضاع المجتمع في هذا القرن إما يتصل به من القرن الماضي ، أو ذات التفاتة إلى الماضي تنويها بمآثر ومحامد عرفت لبعض ذوى البطولـــة ومكـــارم الأخلاق ، ومن أمثلتها (الجنين الشهيد) لخليل مطـــران ، و(الفقـــر والســـقام) المعروف الرصافى ، و(الريال المزيف) للأخطل الصغـــير ، و(خولـــة بنـــت الأزور) لشبلى ملاط ، و(بين عشية وضحاها) لإبراهيم العريض ، و(العذراء) لخير الدين الزركلى ، و(المصدورة) لإلياس أبى شبكة ، وما إلـــى ذلـــك مـــن قصص اجتماعية وتاريخية كثيرة ٠ (١)

كل هذه القصائد من واقعية أو تخيلية ترمى إلى هدف يربط شتى أجزائـــها ومواقعها بوحلة فكرية تلازمها ، وتجعل منها شبه بناية واحدة ٠

فقصيدة " الجنين الشهيد" مثلاً ٠٠ تدور حول ما حدث لفتاة وقعت فى حبـــال شاب مستهتر، غرر بها بعد أن وعدها بالزواج ، ولما حملت منه تخلـــى عنـــها وتركها تقاسي الشقاء حتى اضطرت إلى التخلـــص مـــن جنينـــها بالإجـــهاض والقصيدة بالغة الطول ، ويقول الشاعر إنها قصة حقيقية عرف وقائعـــها وهـــو يقصها عبرة لمن يهمهم الاعتبار(٢) ، ويختمها بكلمة دراماتيكية وضعها علـــى

---

(١) انظر كتاب:الاتجاهات الأربعة – د٠أنيس المقدسى – دار العودة – بيروت ص٣٩٢ ٠

(٢) انظر تفاصيل القصة الشعرية وعرضها فى كتاب: حياة مطران – طاهر أحمد الطنـــاحى – الدار المصرية للتأليف والترجمة – ص١٥٨ – ١٦٤ ٠

لسان هذه الفتاة البائسة وهى واقفة أمام جثة جنينها بعد أن أجهضتـــه بواســطة الأدوية فخرج ميتا فى أحشائها ، فقالت تخاطبه فى قلب كسير:

تموت وما سلمــت حتى تودعا　　وأمك تسقيك السمــوم لتصرعا

وتنفيك من جوف به كنت مودعا　　لتخلص من عيش ثقيل بما وعى

من الحزن والآلام والفقر والذل

وقد نظم " الخليل " عدة قصص فى ديوانـــــه ، صــورت بعــض المآســى والأحداث الاجتماعية التى شهدها بنفسه أو سمعها من غيره ، من خــــلال هــذا الأسلوب القصصى الذي انتهجه فى شعره ، وانفرد به بين شعراء الجبل واعتبره الأدباء جديدا فى ذلك الحين ٠

وعلى هذا الغرار نظمت القصص الاجتماعية ، وهى شائعة فى أدبنا الحديث منذ أواخر القرن الماضى حتى منتصف القرن العشــرين ، ومثلــها - كذلــك - القصص التاريخية ٠

فكرة الموت في قصص يوسف السباعى

عبدالوهاب عبدالمقصود برانية(*)

لايزال الإنسان فى كل زمان ومكان ويعتبر أن الموت هو مشكلة المشـــاكل ؛ إذ إنه يعد لغزاً غير مفهوم ، وهو وإن حاول أن يصل إلى مفهومه وفحـــواه إلا أنه مازال يجهل حقيقته ؛ لأن للموت طبيعة متناقضة فهو موجود وجوداً يقينيـــا مطلقاً يؤمن به الجميع ، وفى الوقت نفسه نجد الذين يؤمنون بوجـــوده ويقينـــه لايكادون يفقهون حقيقته أو يتوصلون إلى كنهه.

"فمن الطبيعة المتناقضة للموت أيضاً أنه يجمع بين اليقين وعدم اليقين ، فأنـــا أعرف بالضرورة أننى سأموت ، لكنى لا أعرف مطلقا متى سيكون ذلك (١)

وإذا كان الإنسان لايعرف شيئا عن مولده ، لأنه عبارة عن تجارب نقلت إليـــه عن طريق الآخرين،ولولا ذلك لظل يجهل تلك الفترة الباكرة جداً مـــن حياتـــه ؛ لأنها كانت في مرحلة اللاوعى-فإنه كذلك لايعرف عن الموت إلا مايقال له فيه.

فالميلاد والموت يرتبطان ببعضهما فهما "متصفان بالغرابة لأنهما تجـــارب وليسا تجارب ، فنحن نعرف عنهما ما يقال لنا ، وقد ولدنا جميعاً ولكننا لانذكـــر شيئاً عن ذلك ، والموت آت كما جاء الميلاد ولكن بنفس الطريقة لانعلم عنه شيئاً فالتجربة النهائية مثل أول تجربة لنا مبنية على الظـــن ، فنحـــن نتحـــرك بيـــن ظلمتين"(٢)

(*) مدرس مساعد فى قسم الأدب والنقد بكلية اللغة العربية بحيرة.

وقد وجدت فكرة الموت رواجا كبيراً عند الشعراء الرومانتيكيين لاعتبارهم إياه وسيلة للخلاص تتفق مع نظرتهم التشاؤمية إلى الحياة ، ومن هنا لاذوا بالطبيعة لأنها تتميز بالأبدية والخلود كما يقال . والشاعر فى تعبيره عن إحساسه الذاتى يختلف عن الروائى الذى يتناول شرائح مختلفة من البشر ، ويعبر عن إحساسه ليس تجاه ذاته ولكن تجاه الآخرين ؛ ولذا كانت معالجة فكرة الموت عند هؤلاء مختلفة تماما عن أولئك الشعراء الرومانتيكيين .

وهذا ماجعل "فورستر" يبين أن الموت يمكن أن يكون وسيلة فنية رائعة فى العمل الأدبى فيقول:"معالجة الموت من ناحية أخرى تغذيها الملاحظة ، وبها تنويع يدل على أن الروائى يجده مناسبا لعمله ، وهو يعمل ذلك لأن الموت نهاية رائعة للكتاب" (٣)

وبالبحث عن معالم فكرة الموت فى قصص يوسف السباعى وجد أنه ينطلق من رؤية خاصة ترى أن الموت يمثل التحدى الأكبر لحرية الإنسان ، فالإنسان يستطيع أن يثور على كل أوضاعه فى الحياة ولكنه لايستطيع أن يثور على الموت ، بل يقف إزاءه عاجزاً مكتوف اليدين لايملك من أمر نفسه شيئا، ومادام الإنسان كذلك فليس عليه إلا أن يجتاز ـ وباقتدار ـ هذه المخاوف حتى يتمكن من الحصول على حريته الإنسانية.

ويوسف السباعى يعترف بالموت ويسخر منه ويعتبره نوعاً من الانتصار لإمكانيات الإنسان وقدراته وعبوراً به إلى مرحلة أفضل ، يقول السباعى:

" ولو أنك عدت لقصص " نائب عزرائيل" و"البحث عن جسد" لاكتشفت أننى أسخر من الموت وأعتبره خصماً أود لو أصرعه ـ لقد كنت أحاول ككاتب أن أزيل هيبة الموت وأجعل الناس تراه مثلماً أراه : مجرد حالة انتقال من الحركة إلى السكون واللاحركة"(٤)

فيوسف السباعى يعتبر الموت انتقالاً من مرحلة إلى مرحلة أخرى أفضل منها، وهى وجهة نظر تلتقى مع وجهة نظر الإسلام للموت ، فالدنيا دار فناء والآخرة دار بقاء، وإذا كانت الدنيا دار اختبار وابتلاء ومجرد تجربة فلماذا يخاف الإنسان من الموت ويجعل الخوف يحد من حريته وانطلاقه نحو تحقيق حياة أفضل؟

لقد أراد يوسف السباعى أن يكشف للناس سر الموت حتى لايرهبوه أو يخشوا منه، وهو كذلك فى معظم أعماله الروائية والقصصية يهون من حقيقة الموت ويخفف من بشاعته ويحطم صورته المرسومة فى مخيلة الناس .

ففى "نائب عزرائيل" يتحدث البطل إلى عزرائيل ملك الموت فى صداقة وود وتارة أخرى فى سخرية واستهزاء يقول:

"عزرائيل ـ ذلك الجبار الذى ترتجف من ذكره الأفئدة وتهلع من اسمه النفوس يقع فى يدى ـ وأحسست بالكبرياء يملأ نفسى ـ ولم أشعر أنى أتمنى شيئاً قدر أن يرانى أهل الأرض فى هذا الموقف ـ وعزرائيل المخيف الذى لايرحم ـ يرجونى العودة إلى الحياة ٠٠ وأنا أتأبى وأتمنع"(٥)

أرأيت إلى صورة عزرائيل ملك الموت الذى يهابه الشجعان وتقشعر له الأبدان ، ولاتطيق الآذان سماع اسمه حتى تستعيذ بالله من نزلته ، أرأيت إلى هذه الصورة وقد سلبها الكاتب كل مايثير منها المخاوف كيف أضحت صورة مألوفة لبنى الإنسان؟

وفى رواية "ابتسامة على شفتيه" التى تتناول موضوع التحرر الاجتماعى والسياسى نرى بطلقها "عمار"يظل فى حياته عابساً وهو مرسوم فى لوحة فتاته وعلى وجهه مسحة الحزن وقد فارقته الابتسامة، ولكن عندما استشهد أسرعت فتاته ورسمت على شفتيه ابتسامة، فالموت هو الذى جلب الابتسامة لعمار، ولم تستطع الحياة العريضة الفانية أن ترسم مارسمه الموت للفتى.

لقد كانت فلسفة الموت عند السباعى أكثرعمقاً ووضوحاً فى قوله:" لقد عودنا الموت أن يكون طائشاً أحمق..فهو زائر لاميعاد له يزورنا بسبب وبلا سبب ،وعرفنا عنه ذلك ، وبالرغم من كل هذا فما زارنا مرة إلا وأدهشنا كل الدهشة..وروعنا وأفزعنا وفاجأتنا رؤيته كأننا لم نسمع به من قبل ..وكأننا كنا على ثقة من أن الذى أصيب به كان من المخلدين ،ولم يكن إنسانا فانياً معرضاً للموت فى كل لحظة كغيره من البشر..

ولكنه الموت ياسيدى !! الموت الذى لم يستطع الإنسان .. من فرط مايتخيله من بشاعته أن يروض نفسه عليه، وأن يفهمه على أنه حقيقة من الحقائق السهلة البسيطة ... ترى ماالحكمة فى هذا ياسيدى.. لم يخدع الإنسان فى الموت فلا يفهمه على حقيقته؟ لم لايعرف أنه عملية هينة لينة ، وأنه انطلاق من سجن

الحياة وتحرر من قيود الجسد ٠٠ لم لايدرك مبلغ مافيه من حلاوة ومتعة فلا يعود يفزع منه ويجزع، ولايعود يلطم الخدود ويشق الثياب ويملأ الدنيا صياحاً وعويلاً كلما زار الموت له قريباً أو حبيباً؟ لم لايدرك أن الموت ليس من البشاعة بحيث يستحق منه هذا البغض وهذا النفور٠٠؟"(٦) ووقفة مع النص السابق تفهمنا بعض الحقائق:

منها: أن يوسف السباعى كان يفهم حقيقة الموت ، وأنه لم يكن متشائماً منه أو ناقماً عليه لأنه أخذ والده وتركه بلا أب وهو فى سن الرابعة عشرة

ومنها: أن نظرته للموت كانت تنطلق من مبدأ إيمانى وتلتقى مع روح الإسلام ، فالإسلام يقرر أن الدنيا فانية ولاخلود فيها لأحد ، والسباعى يستلهم هذا المعنى فيقول :"وكأننا كنا على ثقة من أن الذى أصيب بالموت كان من المخلدين ولم يكن إنسانا فانيا معرضاً للموت فى كل لحظة كغيره من البشر"

وعندما ينهى الإسلام عن الجزع والفزع عند لقاء الموت والاصطدام به يأخذ السباعى طرف هذا الخيط الإيمانى وينسج فكرته عن الموت فيقول:" لم لايدرك (يقصد الإنسان) مبلغ مافى الموت من حلاوة ومتعة فلا يعود يفزع منه ويجزع ، ولايعود يلطم الخدود ويشق الثياب ويملأ الدنيا صياحاً وعويلاً كلما زار الموت له قريباً أو حبيباً"

وقد حرص السباعى على نزع الخوف من الموت من قلوب الناس حتى يمكنهم أن يتحدوا ظروف الحياة القاسية ثائرين ماوسعهم الجهد أن يثوروا على

أنفسهم وعلى العالم الخارجى الذى يتربص بهم الدوائر ، فالخوف من الموت يعد بمثابة القيد الذى يقيد خطى الإنسان ويوقف نموه وتطوره ونزع هذا الخوف دليل الانطلاق والتحرر، فعمار فى " ابتسامة على شفتيه" ثار على نفسه بقصد إصلاح ذاته مستخدماً كل طاقاته فى سبيل ذلك .

وهذه الثورة على النفس تستتبع الثورة على العالم الخارجى كما فعل "على" فى "رد قلبى" والراوى فى"أرض النفاق" ، وهذا مايفعله أبطال يوسف السباعى فى معظم رواياته ، فهم ثوار أولاً على أنفسهم وثانياً على العالم من حولهم بقصد إعادة صياغة البيئة من جديد .

ورغم أن يوسف السباعى صور الموت فى أبسط صورة إلا أنه يجعل منه كارثة كبرى ، فموت "عايدة" فى "إنى راحلة" على إثر وفاة حبيبها "أحمد" كارثة كبرى، وموت "عمار" و"إبراهيم" فى "ابتسامة على شفتيه" و"طريق العودة" يعتبر كارثة قومية . . وانتهاء حياة الأم العاشقة فى "بين الأطلال" بعد موت حبيبها فى حادث سيارة هو نهاية مأساوية لعاشقة ولهى فتظل تعيش لتجتر الذكريات . وكذلك المعلم "شوشة" فى "السقامات" يعيش حزيناً بائسا بعد موت زوجته أثناء ولادتها، ورغم محاولة "شحاتة أفندى صديقه الحبيب التخفيف من وقع المأساة عليه إلا أن شحاتة نفسه يموت فجأة عندما اندفع وراء شهواته وملذاته ، ولم يبق القدر على شوشة طويلاً حيث سقط عليه المنزل المتداعى فأرداه .

وهكذا رأينا أن الموت رغم محاولة السباعى التهوين من أمره والتخفيف من حدته سيظل كارثة كبرى لايمكن للإنسان أن

يبتسم له ، وهو مهما حاول التجلد فى الظاهر إلا أنه يصطلى بسببه نار الحــزن فى الأعماق .

وهذا ما أرادت أن تفعله بطلة قصة "قد تنفع الذكرى" من مجموعــة "سـمار الليالى" حيث كان الفشل يروعها لالأنها تخشى عواقبه "بل لأنها تخشــى رثـاء الناس وعطفهم"(٧) وبعدما تزوجت وأنجبت طفلا وبلغ من العمر سبع ســنوات أصيب زوجها بحمى لم تمهله كثـــيراً ولاقليلاً وكان الجميع يتوقعــون أن الفجيعة سوف تطيــــح بالفتاة الصغيرة ولكنــها لخشـيتها شـفقة غيرها ورثاءهم حاولت أن تظهر تجلدها لمن حولها مــن الأهــل والأحبــاب ، ولكنها لاتستطيع على ذلك التجلد صبراً فتنهار مع أول موقف يذكرها بزوجـــها "لقد كان يخيل إليها أنها استطاعت التغلب على الفشل ولكنها أدركت الآن أنـــها كانت تمعن فيه .. لقد كـــانت تخشــى أن توهــن الذكــرى قواهــا فحــاولت النسيان..."(٨)

والموت فى قصص يوسف السباعى يأخذ أشكالاً متعددة : فتارة يبدو شــفافاً شاعرياً يكون ضحاياه من العشاق الوالهين الذين يموتون بين أيدى أحبابهم كمـا فى قصة "أمنية ضائعة" من مجموعة " مبكى العشاق" حيث تصور طبيباً يحــب فتاة تحتضر (٩) وكما فى قصة "ربيع دائم" التى تصور زوجة مريضة تطلــب من زوجها أن يحملها إلى الروضة التى شهدت مولد حبهما لتمــوت عندهــا أو تتمتع منها بلقاء أخير، تقول:

" كم أود أن أراها ولو مرة واحدة قبل أن أذهب"(١٠)

وتارة أخرى يصور السباعى موقف الأحياء من الموتى حين يصف جنـــازة ميت وقد انشغل المشيعون له بالحــــــــــديث فى شئون الدنيا ، وقد أوسعوا الميت سباً وتجريحاً مع أن كل واحد منهم يبـــــــــالغ فى إظهار الحـــزن ورسم التكشيرة على وجهه حتى يجامل أهل الميت، وهى صورة مــــن صـــور النفاق فى المجتمع٠

هذا وقد حاول يوسف السباعى التغلب على مشكلة الموت بأكثر من وســـيلة فهو تارة يتغلب عليها باستخدامه للقالب الخيالى الجامح(الفانتازى) كما فى قصتـه "نائب عزرائيل" حيث جعل بطل القصة ينتقل الى الدار الآخرة بسبب تشابه اسمه مع اسم الشخص الذى كان من المفروض أن يموت بدلاً منـــه، ولكـن البطـل يكتشف أن حياته فى الدار الآخرة قد أضحت بلا قلق ولاخوف ولامرض ٠ وكما فى مسرحية "البحث عن جسد" فقد تخيل الراوى نفسه روحاً صعد بها"عزرائيـل" إلى السماء٠

وتارة أخرى يتغلب السباعى على مشكلة الموت بتقبله لهذه الظاهرة على أنها ظاهرة طبيعية ، وبأن الموت كما يكون مصدر حزن لبعض الناس يكون كذلـك مصدر رزق للبعض الآخر٠

وأحيانا يتغلب على مشكلة الموت بتفضيله العالم الآخر على الحيـــاة الدنيـا الفانية ، ثم هو يلجأ إلى حيلة فنية تتمثل فى خلق جو من المرح والسخرية حـول ظاهرة الموت محدثا بذلك لونا من التوازن بين تجهم الموت وقتامته وبين فكاهـة الأسلوب ومرحه٠

وقد سلك يوسف السباعى عدة اتجاهات في معالجة ظاهرة الموت واستخدامها كحدث يسهم في بناء العمل الفنى كما يلى :

ــ إما أن يجعل الموت موضوعاً لعمله الروائى كما في " السقامات" فقد عالج فى هذه الرواية الموت وموقف الإنسان منه ، فبين أنه قدر يشترك فيه الجميع من سليم ومريض وكبير وصغير ، فزوجة المعلم شوشة تموت ويحزن لموتها ويقف صديقه شحاته أفندى موقف المواسى له ولكن سرعان ما يرحل هو الآخر ويعقبه شوشة تاركاً خلفه ولده الصغير " سيد" يصارع الحياة .

ــ وأحيانا يجعل السباعى من الموت حلاً لعقدة القصة ففى رواية "نادية" عندما تتأزم العلاقة بين مدحت ونادية بسبب إدعائها أنها " منى" تموت الأخيرة فجأة لتستمر الصلة قائمة بين الإثنين .

وفى " نحن لانزرع الشوك " يموت الأب "محمد السمادونى" لكى تظل "سيدة " تحصد الشوك في طريق طويل . وفى "رد قلبى" يقع "على "فى مأزق الاختيار الصعب، فقد أحب "انجى" ولكن هناك" كريمة" التى أحبته ووعدها بالزواج، فماذا يفعل، ويتدخل القدر ليريحه من عناء التفكير فيختار"كريمة" للموت ، وتبقى " انجى " لحبه .

وتارة ثالثة يجعل السباعى الموت نهاية لقصصه "فعايدة" تنتحر بعد موت "أحمد" بالمصران الأعور ، لتضع لقصتهما نهاية مأساوية.

و"عمار" فى ابتسامة على شفتيه " وإبراهيم في طريــق العــودة يموتــان ويكون موتهما خاتمة للقصة، وتنتهى قصة الأم في " بين الأطـــلال" بمــوت حبيبها في حادث سيارة٠

بقى أن نشير في معالجة يوسف السباعى لفكرة الموت إلـــى أن بعــض أبطال قصصه يموتون موتاً فجائيا، مما يؤدى - إلى تخلخل البناء الفنى فـــي القصة نتيجة لتدخل المصادفة القدرية في ربط نسيج القصة ببعضه ، حيـــث إن المصادفة تعد بمثابة الهوة الكبيرة الواسعة في العمل الأدبى ؛ لأنها تفقــد القارئ عنصر الإقتناع الذى يجعله يتابع العمل الأدبى فى تشوق وكأنه أمــام قصة حياة أشخاص المفروض أنهم من صنع الواقــع وليســوا مــن صنــع الخيال٠

الهوامش:

(١) جاك شورون :الموت فى الفكر الغربى ترجمة كمـال يوسـف حسـين المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب بدولة الكويت سلسلة عالم المعرفـة عدد٧٦ لسنة ١٩٨٤م ص٥

(٢)أ٠م ـ فورستر: أركان القصة ت ـ كمال عياد دار الكرنك القـاهرة ١٩٦٠م ص٦٠

(٣) نفسه ص٦٥

(٤)من حديث ليوسف السباعى مع مفيد فوزى منشور فى كتاب يوسف السـباعى فى ذكراه الأولى ص٣٨٨ ط/ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٩م٠

(٥) نائب عزرائيل ـ يوسـف السـباعى ص١٣ مكتبـة مصـر القـاهرة ٠

(٦) نفسه ص١٩ ٠

(٧) سمار الليالى قصة "قد تنفع الذكرى" يوسف السباعى ص٨٧ لجنـة النشـر للجامعيين ٠

(٨)نفسه ص٩٨ ٠

(٩) مبكى العشاق قصة " أمنية ضائعة" يوسف السباعى ص٦٠ مكتبة مصر٠

(١٠) مبكى العشاق قصة " ربيع دائم" ص١٢٩ مكتبة مصر

موقف الأزهر الوطني تجاه الحملة الفرنسية

أ/ محمـــــــــود عبـــــد الله(*)

لم يجد الفرنسيون عند دخولهم مصر ما كـــانوا يتوقعونـــه مـــن مســالمة الأهالى، إذ كانوا على علم بما يحدث فى مصر من فساد وظلـــم علـــى أيـــدى المماليك ، وما أصاب الأهالى من الفقر والضيق حتى اضطر بعضهم إلى تـــرك الديار والأوطان " فقد قدمت الحملة الفرنسية فى عصر أسود إذ كان الطاغيتـــان إبراهيم ومراد يحكمان البلاد حكما رهيباً لايعرف معنى العدل ، وكلاهما جـاهل لايعرف شيئا من أمور السياسة الدولية ، ولا يظن الدنيا تجمع قوة أقوى مـــن قوة المماليك الذين يتبعونه ، وهذا هو تهور مراد وبطشه وســـفكه للدمـــاء دون مبرر حتى ترك كثير من الفلاحيـــن أرضـــهم وحملـــوا أطفالـــهم إلـــى حيـــث لايعلمون"(١)

وهذا الفساد والظلم تجاه المصريين من قبل الأمراء المماليك أوهم الفرنسـيين أن الشعب المصرى سوف يقف معهم ضد المماليك ، أو أنه على الأقل ســـوف يقف موقف المحايد ، وقد جاء مايفيد ذلك فى التقرير الذى قدمه وزير خارجيـــة فرنسا عن الأسباب التى تبرر وجود الحملة الفرنسية فـــى نظـــره والمقاومـــة الحربية التى يمكن أن تلقاها فى مصر ٠٠٠ وقال عن قوة مصر الحربيـــة " إن أهالى مصر قاطبة يكرهون حكامهم المماليك الذين يسومونهم الظلم والاضطهاد ، وهم عزل لاسلاح معهم ، وإذا أعطاهم المماليك ســــلاحاً بحجة الدفاع عن البـــــلاد من الغارة الأجنبـــــية فإنهم لاشك سيحاربون به طائفة المماليك

(*) معيد بقسم الأدب والنقد

(١) د/محمد رجب البيومى/ نضال الأزهر بين السياسة وحرية الفكر/٢٧

أنفسهم ، فليس ثمة خوف من مقاومة أو وثبة من الأهالى"(١)

والذى نراه أن المصريين لم يكونوا بتلك السلبية التى ظنها الفرنسيون ، فقد قام المصريون بالعديد من الثورات ضد المماليك وفرضوا مطالبهم فيها ، ومنها على سبيل المثال ، ثورة طلبه الأزهر وأهالى القاهرة عام ١١٩١هـ - ١٧٧٧م،(٢) وثورة الحسينية الأولى والثانية عام ١٢٠٠هـ - ١٧٨٦م.(٣)

ثم ثورة شعب مصر عام ١٢٠٩هـ - ١٧٩٥م وما ترتب عليها من صلح بين علماء الأزهر والمماليك.(٤)

والذى لم ينتبه إليه وزير الخارجية الفرنساوى فى ذلك الوقت هو أمر الديانة والعقيدة فقد كان المماليك يدينون بدين الإسلام الذى يمثل أكثر من ٩٠% من جملة الشعب المصرى ؟ وإن ولاء بعض أمراء المماليك للسلطان العثمانى كان يزيد من الرباط بينهم وبين الشعب أملاً فى تماسك الوحدة الإسلامية.

أما الفرنسيون فإنهم يخالفون دين الإسلام وإن ادعى قائدهم " نابليون" أنه مسلم ، الأمر الذى جعل المصريين أشد كراهيةً لهم وحنقاً من المماليك.

---

(١)عبدالرحمن الرافعى..تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر ج١ /١٥٥ ط٦ .

(٢) ينظر: دور الأزهر السياسى إبان الحكم العثمانى:١٣٤ .

(٣) السابق:١٤٠/١٤٩

(٤) السابق : ١٥٣ .

وقد أشار د/ إبراهيم عوضين إلى تلك الحالة التــى كــانت بيــن الحملــة والمصريين قائلاً(١) "٠٠٠٠وإلى جانب محاولتهم احتواء المصريين بالتقرب من المسلمين والاحتفاء ببعض عاداتهم ؟ بل والاعلان عن إسلام نــابليون ، علــى الرغم من ذلك فإن المواجهة كانت حاسمه لاميوعه فيها، إذ الأمر وضح جاليــا أمام الجميع أنهم فى مواجهة مع معتد غير مسلم (صليبيى) ينال بعداوته جـــزاءً من الدولة الإسلامية التى يعيش فى ظلها الجميع متحديين مسلمين وغير مسلمين، ورأى أبناء الأمة فى غزو نابليون أرض مصر والشام وما سبق ذلك من اقتطاع أجزاء من الأرض الإسلامية هنا وهناك امتداد للعدوان الأوربى الصليبى الــذى كان قد وقف دون أطماعه السابقة صلاح الدين منذ ستة قرون حين سعى إلــى توحيد الأمة ، فانطلقوا يتبعونه هو وجنوده فى مصر والشام فلم يتركوه يهنأ بمــا حققه من نصر، إلى أن أحس بتوالى الخسائر ففضل العودة بما بقى من جنــوده إلى فرنسا " ٠

وفى وأثناء وجــود الحملة فى مصر استمال الفرنســيون بعــض النفــوس الضعيفة للتعاون معهم ، وجعلهم حائط صد يقف ضد الشعب المصرى ، فما كان من الوطنيين إلى أن وقفوا ضدهم ، وأخذوا يسخرون منهم ويحقرون من شــأنهم على نحو ما جاء فى قول إسماعيل الخشاب يهجو يوسف بن على الكاتب الــذى قام بتحرير المنشورات للفرنسيين فى أثناء احتلالهم مصر : (٢)

---

(١) الإسلام فى الأدب العربى المعاصر :٤٦ - ٤٧ ٠

(٢) محمد سيد كيلانى : ينظر ، الأدب المصرى فى ظل الحكم العثمانى:١٦ ٠

إنى رأيت أبا البريـــة آدمـــا   فى النوم معتجراً ببرد معلـــم
فدنوت منه مصلياً ومسلمـــاً   وسألته فى صورة المستفهم
هل كان يوسف من بنيك فإننا   من ذاك فى شك مريب موهم
فأجاب وهو مصعد ومصوب   عينيه فى كهيئة المستعظم
حواء طالقة ثلاثاً إن يكـــن   ممن إلى من البرية ينتمـــى

وواضع فى الأبيات الروح المصريـــة الخفيفـــة التـــى امتـــازت بالدعابـــة والسخرية.

هذا، وقد برز دور الأزهر الوطنى فى مطلع العصر الحديث عنـــد قـــدوم *الحملة الفرنسية بروزاً قوياً ومؤثراً على وجود الحملة فى مصر فمـــن أبوابـــه* انطلقت العديد من الثورات التى عبرت بصدق عن روح الكفاح وحياة النضـــال داخل نفوس المصريين .

ويذكر الأستاذ عبد الرحمن الرافعى ما دونه ريبو عـــن دور الأزهـــر فـــى مواجهة الاستعمار فيقول (١): " لقد اجتمع إلى جانب تذمر الأهـــالى واســـتيائهم نشر الدعاية إلى الثورة ، فكان فى الجامع الكبير المعروف بالأزهر لجنة لتدبـــير الثورة تعمل على إثارة الكراهية فى نفوس الناقمين ".

---

(١)تاريخ الحركة القومية ج١ /٢٦٨

ويقول نابليون فى مذكراته عن الأزهريين (١) " إنهم - أى علماء الأزهر - أى زعماء الشعب المصرى وإنهم ظفروا بثقة ومودة سكان مصر عن بكرة أبيهم" ٠

ويؤكد د٠ محمد رجب البيومى ذلك قائلا(٢) " لئن كانت الثورة العرابية بزعامة أحمد عرابي الأزهري الباسل ؟ وثورة سنة ١٩١٩م بزعامة سعد زغلول الأزهري الغيور، فإن هاتين الثورتين قد جمعتا فى قيادتها المخلصة أبطالاً مصريين لاينتمون إلى الأزهر ، ولكنهم يشاركون رجاله حبهم لمصر وعملهم إنقاذ البلاد من براثن الطغاة ، أما الزعامة والمواجهة أثناء الاحتلال الفرنسى فقد خلصت لعلماء الأزهر ورجاله "٠

ومن هنا لم يكن مركز الأزهر القيادى والثقافى يخفى على أحد ، فكان نابليون يعلم تمام العلم تلك المكانة التى يتحلى بها الأزهر ورجاله ، ومدى حب المصريين للأزهر والأزهريين ، والثقة التى ينالها علماء الأزهر ومشايخه من جميع طوائف الشعب المصرى ، ويعلم فوق ذلك أن الأزهر له الدور الرئيس - فى ذلك الوقت - تجاه المقاومة الشعبية ضد أى عدوان خارجى أوداخلى على البلاد والشعب ، كما أنه يعلم أن الأزهر بيده شحذ همة الشعب وحثها ضد كل معتد أو ظالم ، ولذلك عمل نابليون من الوهلة الأولى على إرضاء مشايخ الأزهر وكسب حب المصريين ٠

---

(١)نقلاعن كتاب دورالأزهر فى السياسة المصرية:٨٨ د/ سعيد اسماعيل على٠
(٢) نضال الأزهريين السياسة وحرية الفكر /٢٦ ٠

وقد ذكر الجبرتى " أنه فى يوم الخميس الثالث عشر من صفر سنة ثلاث عشر ومائتين وألف من الهجرة أرسل الفرنسيون فى طلب المشايخ ، وأشاروا عليهم بإنشاء ديوان – وسمى ديوان القاهرة - كان فيه عشرة أعضاء من الأزهر ، وعلى رأس أعضاء الديوان الشيخ عبد الله الشرقاوى فقد كان شيخ الأزهر لعهد الحملة الفرنسية وقد عمل رؤساؤها على إرضائه بكل سبيل فانتخبوه رئيسا للديوان ، ولكن حكمته المجربة أوحت إليه أن يعارض بالتى هى أحسن ، ليستطيع أن يكسب لبلاده الخير من أسهل طريق "(١)

وعلى الرغم من ذلك فإن الشيخ الشرقاوى كانت له مواقف تدل على قوة تمسكه بالحق وحبه لبلاده ، " فقد أقام نابليون حفلاً أراد تكريم علماء الأزهر من خلاله فأحضر " طيلسات ملونه بثلاثة ألوان كل طيلسان ثلاثة عروض أبيض وأحمر وكحلى فوضع منها واحداً على كتف الشيخ الشرقاوى ، فرمى به على الأرض واستعفى وتغير مزاجه وانتقع لونه واحتد طبعه" (٢) وقداستاء إمام المدرسة الاستعمارية ... من موقف الشيخ هذا وعلق عليه بأن أحرار أوربا كانوا يتخاطفون هذه الشارة وقتها . نفس الشارة التى ألقاها المشايخ على الأرض وأنف العامة المصريين من لبسها . (٣)

---

(١)تاريخ الجبرتى ج٣ /١٤ وينظر تاريخ الحركة القومية للرافعى:٩٧ وما بعدها ، وينظر نضال الأزهريين السياسة وحرية الفكر:٣٦ .

(٢) الجبرتى ج٣ /٢٢

(٣)دور الأزهر فى السياسة المصرية :٩٧ .

ويعد اختيار الأزهريين ليمثلوا ديوان القاهرة إشادة ظاهرة بأهمية الأزهر ومكانة علمائه، واعترافاً من الفرنسيين بزعامتهم الشعبية والوطنية ، ومع ذلك ظل الأزهر المركز الأول لقيادة الثورة وحركات المقاومة ضد المحتلين ، كما أن شيوخه وعلماءه كانوا يمثلون العقل المفكر للثوار يقول نابليون فى مذكراته (١) "إن الشعب قد انتخب ديواناً للثورة ، ونظم المتطوعين للقتال ، واستخرج الأسلحة المخبوءة ، وإن الشيخ السادات انتخب رئيساً لهذا الديوان ، وذكر فى تقريره إلى حكومة الديركتوار عن ثورة القاهرة أن لجنة الثورة ، كانت تتفقد بالأزهر"٠

فقد كانت ثورة القاهرة ضد الفرنسيين فى الجامع الأزهر ، حيث احتشد الجموع فى اليوم الأول لها يوم ٢١ اكتوبر سنة ١٨٩٨ داخل ساحة الجامع الأزهر يضجون ويصيحون ويهتفون بالقتال وامتلأت الطرق والشوارع بالناس حاملين الأسلحة قاصدين أحياء الفرنسيين لمهاجمتها ٠٠٠ فعمت الثورة مدينة القاهرة كلها فى أسرع من لمح البصر ٠(٢)

وكان رد الفرنسيين على هذه الثورة رداً عنيفاً قاسياً ، انتهكوا به حرمة الجامع الأزهر ، وتكشف على إثرها ما كانت تخفيه الحملة أو ما كان يخفيه نابليون من كراهية للأزهر والمصريين ٠ ويروى الجبرتى ذلك قائلاً: " وبعد هجعة من الليل دخل الافرنجة المدينة كالسيل ومروا فى الأذقه والشوارع لايجدون لهم مانع كأنهم الشياطين٠٠وهدموا ما وجدوه من المتاريس٠٠ ثم دخلوا

---

(١)دور الأزهر فى السياسة المصرية:٩٧

(٢)نقلا عن كتاب تاريخ الحركة القومية:٢٦٨

(٣)ينظر بفضل ذلك فى الجبرتى ٣٤/٣ وما بعدها٠(٤)السابق:٣٥ ٠

إلى الجامع الأزهر وهم يركبون الخيل وبينهم المشاه كالوعول وتفرقوا بصحنه ومقصورته ، وربطو خيولهم بقبلته ، وعاثوا بالأروقة والحارات وكسروا القناديل والسهارات وهشموا خزائن الطلبة والمجاورين "

ومن ثم يتضح لنا أن الأزهر لم ينس أبداً واجبه الوطنى ووقوفه من أجل مصر مدافعاً عن حضارتها وحريتها ، ولم يغب عنه أن الفرنسيين عندما دخلوا مصر بالقوة ما كانوا إلا مستعمرين أجانب جاءوا إلى البلاد لا من أجل الرقى بها والنهضة العلمية ، بل من أجل استنزاف البلاد ، وسلب كل ما تتمتع به من خيرات ، واستغلال مواردها وتحويلها إلى بلادهم فرنسا ، كما أنه لم يغب عن الأزهريين أن مظاهر الاحترام والتقدير التى كان يتظاهر بها نابليون أمام الأزهر ورجاله ما كانت إلا نفاقا ومداراه ، وإخفاءاً للحقيقة التى ظهرت أخيراً أمام العالم كله واضحة جلية متمثلة فى مواجهة الأزهر والمصريين بأقصى أساليب العنف والإجرام ٠

المحتوى

الصفحة

تم بحمد الله تعالى



رقم الإيداع
٦٩٨٤ / ٢٠٠٠